



مجلة
كلية البنات الأزهرية بالعاشر
من رمضان



العمل الأخلاقي بين المثالية والواقعية
في ضوء الإسلام دراسة نقدية

إعداد الدكتور

أيمن محمود سيد أحمد

قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين والدعوة بالقازيق - جامعة الأزهر

العدد العاشر يونيو ٢٠٢٥ م

الترقيم الدولي (٣٦٠٧-٢٦٣٦)

الترقيم الدولي الإلكتروني (٣٦١٥-٢٦٣٦)

رقم الإيداع بدار الكتب (٢٤٣٢٩/٢٠٢٥)

ملخص البحث

العمل الأخلاقي بين المثالية والواقعية

في ضوء الإسلام دراسة نقدية

يُعنى هذا البحث ببيان قيمة الأخلاق وأهميتها في المجتمعات الإنسانية، حتى إن كل المذاهب الفلسفية قديماً وحديثاً، اعتنت بالأخلاق، وبحثت في مصادرها وأسباب الالتزام بها وموجبات الإلزام، وليست الفلسفات وحدها، بل كل الأديان السماوية والوضعية اعتنت أيما عناية بالأخلاق. ومن هذه العناية العامة بالأخلاق ظهرت الآراء والأقوال المتعارضة في كثير من المفاهيم المتعلقة بالأخلاق والقيم الإنسانية، وكان هذا التعارض سبباً من أسباب مداومة البحث في الأخلاق وما يتعلق بها. ولما كانت الفلسفات كلها تنتهي إلى قسمين كبيرين، هما: المثالية والواقعية، وكان الدين الصحيح الثابت على مبادئ معينة في الأخلاق هو دين الإسلام، كان اختياري لمقارنة الأخلاق في المثالية والواقعية بها في الإسلام؛ ليتبين القارئ أي الاتجاهين أحق بالاتباع: الفلسفة أم الإسلام؟ وأي الأخلاق أسمى؟ وأيها أحق بالعمل؟

وكان البحث في مقدمة وفصلين وخاتمة، ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات، وكان من أهمها: أن الفلسفات نتاج بشري، ممتد بامتداد الأجيال، تتعاقب الأجيال وتتعاقب معها الفهوم على السابقين، وتأتي الفلسفات بما يفرضه الواقع من عوامل، فأزمة الحروب تختلف فلسفاتها عن

أزمة السلم، وعموم العلم في مجتمع يؤثر في فلسفته بخلاف مجتمع يعمه الجهل والظلام، وخير مثال على ذلك: المقارنة بين فلسفات العصور الوسطى في أوروبا وفلسفات عصر النهضة -كما يسمونه-.
الفلسفات لا تأتي بحلول جذرية لمشكلة من المشكلات، ذلك؛ لأنها نتاج عقول بشرية، والعقل البشري قاصر زماناً ومكاناً، بل إنه لا يبحث عن حل للمشكلة إلا بعد وقوعها وظهور كثير من آثارها.

الفلسفات متعارضة متناقضة، يهدم بعضها بناء بعض، لا يستطيع إنسان مهما أوتي من العلم والحدق الفلسفي أن يجمع بين الفلسفات جميعاً في إطار واحد، أو في نسق متجانس، وهذا الأمر وإن كان عيباً في البناء الفلسفي، ولكن ميزة لانطلاق العقل البشري الباحث عن الحقيقة.
ربما تلتقي الفلسفة مع الدين في طلب الفضيلة، وعموم الحق والخير، ونشر الجمال في كل قول وعمل، ولكنها تختلف مع الدين في المصدر والغاية؛ فمصدر الفلسفة وغايتها أرضية، تبدأ على الأرض من العقل البشري، وتنتهي بغاية أرضية وهي السعادة الاجتماعية أو الفردية في المجتمع الإنساني، أما الدين فمصدره رباني، وغايته السعادة الأبدية في جنة الرضوان بعد الموت.

الكلمات الافتتاحية: العمل، الأخلاقي، المثالية، الواقعية، الإسلام، الفلسفة، دراسة، النقد.

Ethical Action Between Idealism and Realism: A Critical Study in Light of Islam

Abstract

The present study explores the significance of ethics and their role in human societies. Since ancient times, philosophical schools—both classical and modern—have devoted considerable attention to ethics, examining their sources, motivations, and obligations. Not only philosophies, but all **divine and non-divine religions** have extensively engaged with ethical principles.

Given this **universal preoccupation with morality**, divergent perspectives have emerged regarding ethical concepts and human values. These contradictions have fueled **ongoing discourse** on morality and its foundations.

Philosophical frameworks generally align with two primary approaches: **idealism and realism**. Islam, as a **divinely established system**, presents a distinct ethical model based on **fixed moral principles**. Thus, this study **contrasts idealism and realism within philosophical traditions against Islamic morality**, enabling the reader to assess **which ethical approach is most worthy of adherence**—philosophical ethics or Islamic principles? Which moral system is superior, and which is most practical?

The study is divided into an **introduction, two main chapters, and a conclusion**, recapitulating key findings and recommendations. Among the most important conclusions:

- **Philosophical theories are human constructs**, continuously evolving across generations. Ethical frameworks shift in response to historical conditions—**wartime ethics differ from peacetime philosophies**, and **scientific advancement shapes moral perspectives differently than ignorance and societal stagnation**. A striking example is the contrast between **medieval European philosophies** and those of the **Renaissance**.
- **Philosophy does not offer absolute solutions to ethical dilemmas** since it is a **product of limited human intellect**. Moreover, philosophical inquiry **often reacts to problems only after they have manifested**, rather than proactively addressing them.
- **Philosophies are inherently contradictory**, with **one system often dismantling the arguments of another**. No single scholar, regardless of expertise, can fully reconcile all philosophies into a cohesive framework. While this **fragmentation may be a philosophical weakness**, it also reflects the **freedom of human intellect** in its relentless pursuit of truth.
- While **philosophy and religion converge in promoting virtue, truth, goodness, and beauty**, they fundamentally **differ in source and purpose**.

Philosophy emerges **from human intellect**, aiming for **social and personal well-being** in this world. **Religion, however, originates from divine revelation**, seeking **eternal salvation in the afterlife**.

Keywords: Ethics, Idealism, Realism, Islam, Philosophy, Morality

المقدمة:

لا يشك عاقل في أن الأخلاق عماد الأمم وقوام الحضارات، وما قامت حضارة من الحضارات الإنسانية إلا وكان لها النصيب الأوفر من الأخلاق، وما انهارت حضارة إلا بسقوط الأخلاق عند أهلها؛ فذهاب الأخلاق عن أي أمة نذير شؤم عليها؛ لأن سقوط الأخلاق يعني التهاون في الأعمال، وفقد الأمان على الأنفس والأعراض والأموال، والرقعة في الدين، وضعف الثقة بين الناس، وطغيان القوي على الضعيف؛ فيقع التلاكم بدلاً عن التكامل، ويحل الشح محل البذل، ويقع محل الكرم البخل، ويزداد الفقير فقرًا، فتكثر الفواحش من الفقير لسد الفاقة، ومن الغني لما أصابه من السفه وعمى البصيرة وتحكم شهواته فيه، وتحتقن القلوب بالبغضاء والضغائن؛ فينعدم الاستقرار؛ وتسقط الدول والأمم أمنًا واقتصادًا، ماديًا ومعنويًا، وما ذلك إلا بسقوط الأخلاق من نظر أبنائها.

إن الحياة الأخلاقية هي الحياة الخيرة، البعيدة عن الشرور بجميع أنواعها وصورها، فكلما انتشرت هذه الحياة انتشر الخير، والأمن والأمان الفردي والاجتماعي، وتنتشر أيضًا الثقة المتبادلة، والألفة والمحبة بين الناس، وكلما غابت هذه الحياة انتشرت الشرور، وزادت العداوة والبغضاء، والنفور والتناحر والتكالب من أجل المناصب، ومن أجل المادة والشهوات، والشرور أكبر سبب لجلب التعاسة، والشقاء في حياة الفرد والجماعة.

مما سبق يتبين بجلاء سبب عناية المتقدمين والمتأخرين بالبحث في الأخلاق الإنسانية؛ إذ هي الفارق الحقيقي بين الآدميين والبهائم، سواء في تحقيق الحاجات الطبيعية، أم في العلاقات مع الكائنات الأخرى؛ فالآداب زينة الإنسان، من حيث الجنس، والأكل والشرب، والنظافة، وتذوق السلوك الجميل، وتمييزه عن السلوك القبيح، والبحث عن أفضل العلاقات وأحسنها في المعاشرة، والمحادثة، والتعاون، والتآلف، وتبادل المحبة، والإكرام، والإحسان، والتراحم، والتعاطف، وغيرها.

ولهذا فالآداب الأخلاقية في الإنسان تمثل حليته الجميلة، وبقدر ما يتحلى بها الإنسان يضيف على نفسه جمالاً وبهاءً، وقيمةً إنسانية.

ومع اتفاق كل الأمم على أهمية الأخلاق في المجتمع الإنساني، فإنهم اختلفوا في مفهومها، وتطبيقها سلوكياً، كما اختلفوا في "الإلزام الخلقى" ومصادره؛ لأن فكرة الإلزام لا يخلو منها أي مذهب خلقى جدير بهذا الاسم؛ فالإلزام هو العنصر الأساس، أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية، وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العقلية والعملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية، وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه، وإقامة أسس العدالة، وحينئذ تعدم الفوضى، ويسود الاضطراب، لا فى عالم الواقع فحسب بل من الناحية القانونية، ومن وجهة نظر المبدأ الأخلاقى ذاته.

وإذا كانت الأخلاق تؤول فى النهاية إلى مجموعة من القواعد فكيف يتسنى للقاعدة أن تكون قاعدة دون أن تلزم الأفراد باتباعها ؟

إن السلوك الإنسانى ليس سلوكاً عشوائياً، والسلوك الأخلاقى يصدر عن دوافع معينة، هى المرجعية الأخلاقية، التى يمكن للإنسان أن يخالف دواعيها بشكل من الأشكال، ولما كانت درجة الالتزام الأخلاقى مبنية على درجة الإلزام، ولما كان من أهم خصائص الأخلاق القويمة مدى ما فيها من قوة تدفع الإنسان إلى العمل بما كان الإلزام من أهم الأسس التى يقوم عليها صرح بناء الأخلاق.

ولقد تفرقت الفلسفة بهذا الصدد إلى مذاهب شتى، كل منها يرد الإلزام إلى أحد مكونات الطبيعة الإنسانية، ويتلافى ما عداه، وجدُّوا فى وضع سلطة يمكن أن تمثل القوة المنفذة لقانون عالمي للأخلاق، وحاولوا جاهدين إيجاد حافز يكفى لأن يبعث فى النفوس الرغبة الصادقة فى اتباع الحق والتنكب عن الباطل، وباءت كل تلك الجهود بالقصور فى تحصيل شيء من ذلك، لأنهم يقيمون جهودهم على معايير العقل البشرى القاصر، فى حين نجد نظرة الإسلام إلى الطبيعة الإنسانية وخصائصها أكثر شمولاً واتساعاً، باعتبار أن الإنسان كلٌّ لا يتجزأ، ولا بد

لكى يستقيم سلوكه من ضرورة التنسيق بين كل تلك الجوانب؛ حتى يؤدي كل جانب منها وظيفته في حراسة قانون أخلاقي، يهدف الإنسان إلى تحقيقه.

مما سبق تتبين أهمية الأخلاق في الحياة الإنسانية، وبناء على ذلك كان اختياري لهذا الموضوع، ولقد جعلته في مقدمة وفصلين وخاتمة.

أما المقدمة فكانت في كلمة عن الأخلاق وأهميتها، وعناية الديانات والمذاهب الفلسفية بها.

وأما الفصل الأول فعنوانه: **دور الفلسفات في العمل الأخلاقي**. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العمل الأخلاقي في الفلسفة المثالية.

المبحث الثاني: العمل الأخلاقي في الفلسفة الواقعية.

وأما الفصل الثاني فعنوانه: **العمل الأخلاقي في الإسلام**. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأخلاق، وأهميتها، وخصائصها في الإسلام.

المبحث الثاني: مصادر الأخلاق في الإسلام.

المبحث الثالث: الضمير والعقل بين الإسلام والمذاهب الفلسفية.

وأما الخاتمة ففيها أهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأول

دور الفلسفات في العمل الأخلاقي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العمل الأخلاقي في الفلسفة المثالية.

المبحث الثاني: العمل الأخلاقي في الفلسفة الواقعية

للفلسفات دور كبير في توجيه حياة المجتمعات اللادينية، من حيث القيم والمبادئ المنبثقة عن المفاهيم الفلسفية، والتي بدورها تتحكم في أخلاق تلك المجتمعات، وتشريعاتها، وقوانين معاملاتها، بل إنها تتحكم في كيفية تصريف أموالهم، والحكم في دماءهم وأعراضهم، وبالجملة فإنها تقع من هذه المجتمعات موقع الدّين من أصحاب الديانات؛ لهذا كان الحديث عن الأخلاق في هذه الفلسفات وارداً عند مقارنة الأخلاق في الإسلام بغيره مما يعتقد الناس ويسيروا على نهجه من الديانات والفلسفات.

الفلسفات المعاصرة:

الفلسفات: جمع فلسفة، وهي لفظ مشتق من اليونانية وأصله: (فيلا صوفيا)، ومعناه: محبة الحكمة، ولفظ الفلسفة في العصور الحديثة يطلق على دراسة المبادئ الأولى التي تفسر المعرفة تفسيراً عقلانياً.^(١)

ولا نستطيع الجزم بفترة زمنية محددة يمكننا من خلالها التأريخ للفلسفات المعاصرة؛ إذ إن الفلسفات عامة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض، وقد تعددت الأقوال والآراء بشأن ذلك،

(١) ينظر: المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية) الدكتور جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب - بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ٢ / ١٦٠

إلا أنه يمكن المقاربة بين تلك الآراء بأنها: الفلسفات التي لا تزال قائمة بدءًا من القرن السادس عشر حتى عصرنا هذا.^(١)

وتتنوع الفلسفة باعتبار توجه الفيلسوف نفسه؛ فمنهم من اعتمد البراجماتية^(٢)؛ فكان مذهبه في الإتيقان أنه عمل نفعي يعود عليه هو بالنفع قبل أي أحد، دون النظر إلى القيم الدينية أو القيم الأخلاقية والسلوكية، إلا من حيث ما تنتجه في الواقع من آثار عملية، ومن هؤلاء : (بيرس)^(٣) و (جيمس)^(٤) و (ديوي)^(٥) الأمريكيون^(٦).

-
- (١) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، مكتبة الدراسات الفلسفية الطبعة : الخامسة ، ص ٨
- (٢) البراجماتية : مذهب فلسفي يعتمد على الحس والتجربة دون العقل والنظر، ولا يعترف بحقيقة سوى ما تنتجه التجارب والحواس، أما ما كان عن طريق النظر العقلي أو الوحي فلا اعتبار له في هذا المذهب إلا بقدر ما ينتج من نتائج ملموسة. ينظر: المعجم الفلسفي ، جميل صليبا (١ / ٢٠٤)
- (٣) تشارلس بيرس ١٨٣٩ - ١٩١٤م ويعد مبتكر كلمة البرجماتية في الفلسفة المعاصرة. عمل محاضراً في جامعة هارفارد الأمريكية، وكان متأثراً بدارون ووصل إلى مثل آرائه.. وكان أثره عميقاً في الفلاسفة الأمريكيين . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨٣٢)
- (٤) وليم جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠م عالم نفس وفيلسوف أمريكي من أصل سويدي بنى مذهب الذرائعية البرجماتية على أصول أفكار بيرس، ويؤكد أن العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها. من مؤلفاته: مبادئ علم النفس وموجز علم النفس وإرادة الاعتقاد وغيرها. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨٣٢)
- (٥) جون ديوي ١٨٥٦ - ١٩٥٢م فيلسوف أمريكي، تأثر بالفلسفة الذرائعية، وكان له تأثير واسع في المجتمع الأمريكي وغيره من المجتمعات الغربية، كتب في فلسفة ما بعد الطبيعة (الحياتيزيقا) وفلسفة العلوم والمنطق وعلم النفس وعلم الجمال والدين. وأهم مؤلفاته: دراسات في النظرية المنطقية ١٩٠٣م، وكيف تفكر ١٩١٠م والعقل الخالق ١٩١٧م والطبيعة الإنسانية والسلوك ١٩٢٢م وطلب اليقين ١٩٢٩م.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨٣٢ - ٨٣٣)
- (٦) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا (١ / ٢٠٤)

ومنهم من اعتنق المذهب المثالي فكانت الأخلاق عنده شأناً نظرياً فقط، دون الوقوف به على أرض الواقع، أمثال : كانط^(١)، الذي يطلق على مذهبه : المثالية المتعالية، وهي التي (تقرر أن جميع الظواهر دون استثناء تصورات أو تمثيلات عقلية وتعدّ كلا من الزمان والمكان صورة محسوسة متعلقة بالمدرجات الحسية، لا صورة قائمة بذاتها، ولا صفة من صفات الشيء بذاته)^(٢) ومن قبله جورج باركلي^(٣) ومنهم من اعتنق الفلسفة المشائية أو التصوف الفلسفي فكانت الأخلاق عنده من باب العلة والتعليل، أي: إن التخلق بخلق ما، وليكن مثلاً الإتيان لصنعة ما، علة لجودتها واستمرار المصنوع وطول أمدّه، كما أن للكون علة هي التي تمده بالاستمرار، وسيأتي الحديث عن هذه المذاهب الفلسفية وآثارها في الأخلاق الإنسانية، وبالنظر في عموم الفلسفات الحاصلة قديماً وحديثاً تبين أنها تقع تحت قسمين كبيرين:

أحدهما: الفلسفات المثالية.

الثاني: الفلسفات الواقعية.

ولكل فلسفة منهما مفهومها الخاص للأخلاق ومصادرها، وآثارها.

(١) إيمانويل كانط أو إيمانويل كانط (بالألمانية: Immanuel Kant) هو فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر (١٧٢٤ - ١٨٠٤). عاش كل حياته في مدينة كونيجسبرغ في مملكة بروسيا. كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. كان إيمانويل كانط آخر فلاسفة عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين البريطانيين جون لوك وجورج بيركلي وديفيد هيوم ، ألف كتباً مشهورة ، أهمها : نقد العقل الخالص ونقد العقل العملي ، وكان يعتقد أن هناك حجة أخلاقية كافية للبرهان على وجود الله هي القانون الأخلاقي.

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨١٥)

(٢) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، ٣٣٩ / ٢

(٣) جورج باركلي ١٦٨٥ - ١٧٥٣م وهو راهب أيرلندي، كان على جانب كبير من النشاط والجادبية الفطرية والقدرة على الإقناع ويعد المؤسس الحقيقي للمثالية، وكانت أفكاره ذات تأثير كبير فيمن جاء بعده من المفكرين والفلاسفة. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨١٥)

المبحث الأول

العمل الأخلاقي في الفلسفة المثالية

المثالية نسبة إلى المثال، ويجوز أن يكون المقصود نسبتها إلى المثل - بفتح الميم والشاء -، والمثال والمثل يُعَبَّرُ بهما عن الشيء الكامل، أو النسخة الأصلية المراد اقتفاؤها والنسج على منوالها، وأول مَنْ تكلم عن المثال والمثل: أفلاطون.^(١)

والمثل عند أفلاطون هي الصور المجردة في عالم الإله، التي تنطبع عليها الموجودات، فهذه الصور المجردة هي مبدأ المعرفة، وهي أيضا مبدأ الأجسام، والمثل الإلهية عند أفلاطون، أو الصور المجردة لا تفنى ولا تفسد، ولكن الذي يفسد ويفنى هو الموجود المنطبع على هذه الصور.^(٢)

والمثل عند أفلاطون هو مبدأ الوجود؛ لأنه لا حقيقة للأشياء المحسوسة، إلا بما تحتوي عليه ماهيتها، والتي تصل بينها وبين عالم المثل، وبهذا يقوم المثال في الفلسفة الأفلاطونية بوظيفة العلة المفسرة للعالم الطبيعي..

ويطلقون كلمة مثالي على كل شيء طابق أصله، أو وصل إلى حد الكمال، أو هو كل من يبالغ في التمسك بمطابقة الأصل، خاصة في عالم الأخلاق والفضيلة؛ لانصراف فكره إلى العالم المثالي^(٣).

(١) أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينة، تتلمذ لسقراط، وحكى عن أفلاطون أنه قال: إن للعالم محدثا مبدعا، أزليا، واجبا بذاته، عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية، كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا ظل، إلا مثالا عند الباري تعالى. ينظر: الملل والنحل للشهرستاني، مؤسسة الحلبي/ مصر، د. ت. ١٤٦ / ٢.

(٢) ينظر: الجمع بين رأيي الحكيمين للفارابي، تقديم وتحقيق: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، د. ت. ص ٨ - ٩.

(٣) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٢ / ٣٣٦ - ٣٣٧.

والمثال ليس كالنظير، (والفرق بين المثال والنظير أنّ النظير طبعي والمثال روحاني والنظير يوجد في آلات الحواس؛ لأنّ إدراكاتها طبيعية، والمثال يوجد في العقل والحواس؛ لأنّ إدراكاتها روحانية)^(١).

وأما المثالية في الفلسفة فإنها تعني النزعة الفلسفية، التي تقوم على ردّ كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه، وهي بهذا المعنى مقابلة للواقعية الوجودية (Realisme Ontologique) التي تقرر أن هناك وجودًا مستقلًا عن الفكر.

وتطلق الفلسفة المثالية ويراد بها اللا مادية، وهناك المثالية التجريبية، والوجودية، والقطعية، والمتعالية، والذاتية، والموضوعية، والمطلقة، والفلسفة المثالية موجودة في كل مجالات الفلسفة، فهناك المثالية الاجتماعية، والمثالية الأخلاقية، والمثالية الجمالية، وهي في كل هذا تهدف إلى رد كل مجال إلى صورته الأولى.^(٢)

من خلال ما سبق بيانه عن التعريف بالفلسفات المثالية يمكن القول بأنها:

- ١ - فلسفات تعترف بالقيم الإنسانية اعترافاً تاماً؛ فهي فلسفات تنطلق من مثلث القيم العليا - الحق، والخير، والجمال - فقيمة الجمال تمتاز بكل ما هو وجداني، وقيمة الحق تنفرد بكل ما هو معرفي، وقيمة الخير تختص بكل ما هو سلوكي، وهذه القيم العليا

(١) كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ) تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٩٩٦م. ٢ / ١٤٤٨

(٢) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٢ / ٣٣٨ - ٣٤١

- الثلاث كامنة في طبيعتها، وهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات، وكائنة في العالم الخارجي؛ كائنة في عالم المثل؛ سابقة على الوجود المحسوس.^(١)
- ٢- فلسفات ترى الحق والعدل وسائر القيم مستمدة من عالم المثل، لا دخل للإنسان في تكوين شيء منها، ولكنه يضاهيها بأفعاله.
- ٣- فلسفات ترى القيم من حيث هي قيمٌ مطلقة غير نسبية، وواجبة لا افتراضية؛ فالقيم في هذه الفلسفات صالحة لكل زمان ومكان؛ فهي لا تتغير بتغير الأفراد من جيل إلى جيل، أو من مجتمع إلى مجتمع فهي ثابتة في جوهرها؛ إذ إنها ليست من صنع البشر، بل هي جزء من طبيعة الكون ذاتها، ودور الإنسان هو حمل هذه القيم، وعلى عاتقه تتحقق الغائية الإلهية على الأرض؛ فهو همزة الوصل بين الحدث "الواقعة" والقيمة^(٢).

(١) ينظر: فلسفة التربية، ماهر إسماعيل الجعفري وآخرون، دار الكتب للطباعة والنشر - بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٩٣ م ص ٤٠ ومصطلح فلسفة التربية في ضوء المنهج الإسلامي (دراسة نقدية) خالد بن حامد الحازمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السادسة والثلاثون، العدد الرابع والعشرون بعد المائة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ٣٢٩. وعلم الأخلاق الإسلامية، مقداد ياجن محمد علي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ٣٣٥

(٢) ينظر: مقدمة في فلسفة التربية، جورج نيلر، ترجمة: نظمي لوقا، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٣٩

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ، ٢ / ٨١٥ مبحث القيم في علوم الإنسان، محمد أحمد بيومي، دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية، ١٩٨١م.

العلمانية - المفهوم والمظاهر والأسباب، أبو سفيان مصطفى باخو السلاوي المغربي، جريدة السبيل، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، ص ١٤٥ - ١٤٧

وهي بهذا المعنى تكون شديدة الشبه بالواجب الأخلاقي عند كانط ، فالواجبات الأخلاقية عنده عامة، وصادقة، وضرورية، ولا تعتمد على العواطف والمشاعر، بل على العقل الذي يكتشفها اكتشافاً.^(١)

الأساس الأخلاقي في الفلسفة المثالية:

إن الفلسفة المثالية تهتم بالقيم اهتماماً بالغاً حتى أن أفلاطون - وهو رائدها الأول - جعل القيم مثلية، وهي: قيم الحق، والخير، والجمال، واشتهرت هذه القيم منذ أفلاطون إلى يومنا هذا.

واهتمام المثالية بالقيم من متطلبات العناية بالأخلاق، وقد انعكست هذه القيم على نظريتها التربوية على نطاق واسع؛ لأن هذه القيم تُعدُّ وسيلة للرفي إلى عالم المثل، فلا بد من تربية الأجيال عليها حتى يكون الكمال الإنساني.

ويرى أفلاطون " أن العالم المادي الذي نعيش فيه لا يستحق الاهتمام؛ لأنه أشباح فانية وإنما الذي يستحق الاهتمام هو عالم القيم الروحية والمثل العليا؛ لأنه حقائق خالدة، وهي تتمثل في الخير، والجمال، والحق، وأن الخير هو الحق، وأهما يتضمنان الدين والخلق"^(٢)

وهناك عدة أسس أخلاقية في الفلسفة المثالية قديماً وحديثاً، ولكن بدرجات متفاوتة، لعل من أهمها:

١ - النظر إلى العالم نظرة ازدواجية، فهناك عالم الأفكار (المثل) وهو العالم الحقيقي، والعالم الآخر وهو العالم الأرضي، وهو الظل للعالم الحقيقي، وأن الحقيقة النهائية موجودة في عالم الأفكار، وهي ليست من صنع الفرد أو المجتمع؛ لأنها مطلقة وشاملة، ويمكن للعقل معرفتها عن طريق الإلهام أو الحدس، وليس عن طريق الطرائق العلمية، أو

(١) ينظر: القيم الأخلاقية دراسة نقدية في الفكر الإسلامي والمعاصر، سامية عبد الرحمن، د. ن.، ١٩٩٢، ص ٩٢

(٢) النظريات التربوية في ضوء الإسلام، مقداد يالجن، دار عالم الكتب، السعودية، ٢٠٠٨ م ص ٥٨

الوصول إليها بواسطة العقل المطلق، وأن هذه الحقيقة ذات طبيعة عقلية، أو ذهنية، أو روحية، وهي المعرفة الحقيقية.

٢- تنظر إلى الإنسان نظرة ازدواجية، فهو مكون من عقل أو روح وجسم، وترتكز على الروح أو العقل، وتحمل الجسم، باعتبار أن الروح هي التي ترتقي إلى عالم المثل، وليس الجسم.

٣- تنظر إلى الكون المادي من خلال الذات العارفة، وتعلق وجوده على وجود العقل الذي يدركه، وأن الأشياء المادية هي مصدر الفساد وأصل المعرفة الظنية.

٤- تؤمن بأن الوجود لاحق على الماهية، بمعنى أن جوهر الإنسان (ماهيته) الذي يعبر عن خصائصه الذاتية، التي تميزه عن غيره من الكائنات، تسبق وجوده الفعلي.

٥- تكمن الجذور العرفانية للمثالية في المبالغة في جانب واحد من جوانب عملية المعرفة المعقدة، وتضفي عليه صفة الإطلاق، وتفصله عن الواقع والعالم المادي.

٦- تفسر نشوء الأفكار من تلقاء نفسها، مستقلة عن الواقع، فمفهوم الأشياء يوجد مستقلاً عنها.

٧- تعتبر العقل البشري جزءاً من العقل الكلي الشامل المتغلغل في الكون، والمعرفة الحقيقية هي من نتاج هذا العقل، والحقيقة كامنة في أفكار العقل، فالمعرفة مستقلة عن الخبرة الحسية.

٨- القيم ثابتة لا تتغير، ويتوصل إليها العلماء والعظماء عن طريق الإيحاء، ولا يجوز الشك فيها، وهي صالحة لكل مكان وزمان. وأهم القيم في نظرها هي القيم المطلقة وهي: الحق المطلق، والخير المطلق، والجمال المطلق. وهي موجودة قبل وجود الإنسان وجزء من تركيب الكون، لذا يجب أن تقوم سياسة المدرسة على مبادئ راسخة ثابتة.

٩- تبحث الفلسفة المثالية في أمور الحياة والكون، فتكشف ثغرات وفجوات تحاول سدها بمنهج العلم فتفشل، ومن ثم تلجأ للعقل وحده، تسأله عن الحل، فيدلها على أفكار خارج الطبيعة^(١).

وتنقسم القيم في الفلسفات المثالية إلى قسمين: قيم صورية، وقيم مادية، أما الصورية فهي المثال الأول، وأما المادية فهي القيم المتحققة في أفعال الناس، ولن تكون القيم المادية قيمًا حقيقية عندهم حتى تبلغ في المطابقة حد القيم الصورية، فمن طابق فعله المثال بلغ الكمال، وصار إنساناً كاملاً^(٢).

وعلى هذا فإن كلَّ خلق من الأخلاق، أو قيمة من القيم في الفلسفات المثالية له مثال في عالم المثل، ينبغي للإنسان أن يكشف عن حقيقته، ليطابق أخلاقه المادية بصورتها المثالية الكامنة في عالم المثل.

ولكن هذا البحث للكشف عن حقيقة أي خلق في عالم المثل كي يطابقه الإنسان في عالم المادة لن يتحقق إلا عن إرادة، ولن تبحث هذه الإرادة عن قيمة من القيم إلا إذا كانت إرادة خيرة؛ إذ الخير في الفلسفات المثالية مصدر لوجود كل الموجودات، وهو سبب كل ما هو جميل وصالح، وهو المثل الأسمى في هذه الفلسفة^(٣).

والإرادة الخيرة هي الإرادة التي تنطلق وراء المثل والقيم دون النظر إلى ما يصدر عنها من منافع وملاذٍ، ولكنها تبحث عنها لذاتها؛ فإن تحركت نحوها بغرض آخر خرجت عن كونها

(١) الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، نعيم جعيني، دار وائل، الأردن، ٢٠٠٤م ص ١١٩ - ١٢٠

(٢) ينظر: نظرية القيم في الفكر المعاصر، لصالح قنصوه، دار التنوير للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٨٤م. ص ٣٢

(٣) ينظر: محاورات أفلاطون، أفلاطون، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة، ص ١٣

مثالية، وهم بهذا يعلنون من شأن الإرادة على حساب العقل، الذي يقدر للأمور قدرها، حتى إن شوبنهاور^(١) جعل (الإرادة، لا العقل، هي العنصر الأساسي في الإنسان)^(٢).

ومما تمتاز به الفلسفات المثالية في مجال الأخلاق أن الأخلاق فيها ثابتة ومطلقة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان.

تنزه الأخلاق في الفلسفات المثالية عن الغاية والمصلحة، بل هي الغاية القصوى في كل قول وعمل عندهم؛ ليطابق الصورة المثلى في عالم المثل، ومعنى ذلك أن أي خلق من الأخلاق لا يكون متقناً، يبلغ به صاحبه المثل الأعلى، فإن التقصير فيه يكون واقعاً من الإنسان، وعلى الإنسان أن يغير أسلوبه في الحياة من أي جهة كانت -ثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها- حتى يبلغ درجة المطابقة؛ فيكون متفقاً مع صورة القيمة المثلى في عالم المثل، وذلك في أي قيمة من القيم^(٣).

تكاد تتفق الفلسفات المثالية مع الديانات السماوية في مفهوم الأخلاق سوى في أمرين:

الأول: المنطلق الذي تنطلق منه هذه الفلسفات وهو منطلق بشري، أما الدين فهو رباني.

الثاني: عاقبة العمل بالمفاهيم المثالية؛ فالفلسفات المثالية لا تنظر إلى عاقبة، وترفض طلب الثواب، كما لا تبالي بعقاب في سبيل تحقيقها، أما الدين فإنه يرغّب في الثواب، ويجعل طلبه عبادة أخرى يثاب العبد عليها.

(١) آرثر شوبنهاور ١٧٨٨ - ١٨٦٠ م وهو فيلسوف ألماني، تأثر كثيراً بفلسفة أفلاطون المثالية وكانت من كتبه العالم إرادة وفكرة وقد تأثر بالبوذية، لكنه لم يقبل مذهب تناسخ الأرواح.

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٨١٦ / ٢)

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت = ويليام جيمس ديورانت (المتوفى: ١٩٨١ م) تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ١٢ / ١٤٤.

(٣) ينظر: مبحث القيم في علوم الإنسان، محمد أحمد بيومي، ص ١٦٣.

والأخلاق في الفلسفات المثالية ضرورة جداً في المجتمع الإنساني؛ كي تساعد على وجود المثالية الاقتصادية، والمثالية الاجتماعية، والمثالية الأخلاقية، بل وتجعل للتطور في كل جانب من هذه الجوانب الحياتية مثلاً أعلى مقصوداً، ينبغي الوصول إليه، وذلك؛ (أن المثل الأعلى هو الفكر من حيث تجليه في قوانينه الحية، وهو قوة لا صورة، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى يدل على الصورة الكاملة، التي لا تتحقق تحققاً نهائياً، فهو حدّ غائي، نتجه إليه من غير أن نبلغه، ... والمثل الأعلى بالمعنى الخاص أو النسبي هو النموذج الذي نتصوره، وننسج على منواله في بعض قضايانا الفكرية والعملية)^(١).

وإذا كانت المثالية ترنو إلى عالم المثل فإن هذا لا ينفي إقرارها بوجود الأخلاق في عالم المادة المحسوس، وذلك من خلال جمال الصنعة، ودقة التعبير، ومتانة المنتج، وخيريته، فكل ما كان من الخير فهو خير، والحسن في الفلسفات المثالية هو جوهر كل خير وعلته.

كما أن الفلسفة المثالية تساعد طالبها على التعلم والكشف عن المعقولات، التي تغيب عن الحس؛ لتعمل على نمطها، أو لتطابقها في العالم المادي؛ فمثلاً: الإتقان قيمة معقولة لها صورتها في عالم المثل، لا يستطيع الإنسان محاكاتها في عالم المادة إلا إذا أخذ بمبدأ المعرفة؛ لأن النفس لا تدرك الأشياء، ولا تعرف كيف تسميها إلا إذا كانت قادرة على تأمل المثل، -ثم ينتقل بتلك المعرفة إلى مبدأ آخر في المثالية نفسها وهو مبدأ الوجود-، لأن الجسم لا يتعين في نوعه إلا إذا شارك بجزء من مادته في مثال من المثل^(٢).

وعلى هذا فإن الأخلاق في الفلسفة المثالية تشمل مباحث الفلسفة الثلاثة -الوجود والمعرفة والقيم-.

(١) المعجم الفلسفي لجميل صليبا، ٢ / ٣٤٠

(٢) المرجع السابق، ٢ / ٣٣٥

ومع كل ما سبق من الحديث عن مبدأ الوجود في الفلسفة المثالية فإن الوجود المقصود لديهم ليس الوجود المادي؛ فإنه متغير، بل ويفنى، ولكن الوجود الحقيقي لديهم هو الوجود الصوري اللامادي، أو الاسمي^(١).

فالنزعة المثالية لدى هؤلاء الفلاسفة قد أبحفت المادة حقها، ولعلمهم معذرون في شيء من ذلك، وهو أنهم كانوا يواجهون مادية طاغية في عصرهم، يراد بها أن تنزع الإنسان من روحانيته، وعذر آخر، وهو أن هؤلاء الفلاسفة وإن كانوا يصدرن بفلسفاتهن عن مفاهيم روحية دينية فإنهم لا يصدرن عن مفاهيم دينية صحيحة، بل محرفة^(٢)، وهذا ما أوقع كثيراً منهم في التناقض - كما سيأتي بيانه - عند المقارنة بين هذه الفلسفات وبين الإسلام.

وكل خلُق باعتباره عملاً بشرياً، مضاهياً للقيمة الحقّة الموجودة في عالم المثل لا يمكن أن يوصف في الفلسفات المادية بالوجود ولا بالعدم (ومعنى ذلك أن الأشياء المحسوسة فيها جانب الوجود لقرّبها من المثل، وفيها جانب عدم لبعدها عن التجريد، فهي لهذا وسط بين الوجود والعدم، أعني أنها أنصاف حقائق)^(٣).

والفلسفة المثالية إذ تجعل من المثل صوراً في عالم العقل، فإن هذه الصور ليست مستقلة بذاتها عن غيرها من الصور؛ وذلك أن (الحقيقة المطلقة - أي المثل - ليست وحدها منعزلة، ولكنها أعضاء من كلّ واحد، أي إنها في مجموعها تكون كلّاً ذا أجزاء، وكل هذه الأجزاء

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص ١٦٢

(٢) ينظر: النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها - دراسة نقدية، حسن بن محمد حسن الأسمرى. أصل الكتاب: رسالة علمية تقدّم بها المؤلّف لنيل درجة الدكتوراه، من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، طبع على نفقة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

(٣) قصة الفلسفة اليونانية، زكي نجيب محمود وأحمد أمين، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، د. ت.، ص ١٠٥

متصل بعضها ببعض. فكما أنَّ المثال الواحد يُطبَّق على جزئيات كثيرة من الأشياء المحسوسة يكون هو بينها العنصر المشترك، كذلك يكون فوق كل طائفة من المثل الدنيا التي تشترك في صفة ما مثال أعلى منها، وهذا المثال الأعلى نفسه يكون فوقه مضافاً إليه ما يشبهه من المثل مثال أعلى، وهكذا دواليك : فمثال البياض، ومثال الحمرة، ومثال الزرقة يشملها كلها مثال اللون. ومثال الحلاوة، ومثال المرارة تنطوي تحت مثال الطعم، ثم تنطوي مثل اللون والطعم وما إليهما تحت مثال أعلى منهما هو مثال الكيف، وهكذا تظل تتدرج في العلو حتى يتكوَّن لديك هرم، وفي قمته المثال الأعلى الذي يفوق كل ما عداه من المثل، وهو حقيقة الوجود المجردة، التي وُجدت بنفسها ثم صدرت عنها سائر المثل، بل الكون كله، ذلك هو مثال الخير، ومن هذا نرى أن عالم المثل وحدة، إلا أنها تتكوَّن من أجزاء كثيرة^(١).

وعلى هذا فكل خلق في حقيقته الصورية عند الفلسفة المثالية ليس مثلاً مستقلاً، كما قد يُظن، ولكنه جزء من مثال أعلى وهذا المثال الأعلى جزء من منظومة المثل العليا، التي يتأسسها المثال الأكبر والأعم وهو مثال الخير.

أوجه النقد التي وجهت للفلسفة المثالية:

الفلسفة المثالية شأنها شأن غيرها من الفلسفات تضمنت نواحي إيجابية وأيضاً تم نقد بعض تطبيقاتها. فبالنظر إلى الفلسفة المثالية كفلسفة تربوية محافظة اتسمت بالحفاظ على التراث المعرفي ونقله، واعتبرت التربية عملية إعداد حياة مستقبلية، فإن هناك بعض النواحي الايجابية الأخرى قد أكدتها تلك الفلسفة مثل:

- التأكيد على الجانب المعرفي وأهمية المعرفة بالنسبة للمتعلم.
- الاهتمام بالثقافة والحفاظ عليها.

(١) قصة الفلسفة اليونانية، زكي نجيب محمود وأحمد أمين، ص ١٠٦

- وضع المعلم في منزلة سامية، واعتباره أهم عناصر العملية التربوية.
- التأكيد على أهمية الجوانب الخلقية والدينية في تنمية شخصية المتعلم.
- الاخفاق في فهم طبيعة المتعلم؛ والنظر إليه على أنه عقل أو روح خالصة، والاهتمام بالمعرفة أو تنمية العقل فقط، وإهمال الجسم وكل ما يمت إليه من نشاط خارج البرامج الدراسية.
- قصور في فهم وظيفة المدرسة على أنها المحافظة على التراث ونقله للأجيال التالية، فالمدرسة لها وظائف أخرى بجانب الحفاظ على التراث.
- الاهتمام بالعلوم النظرية وإهمال العلوم التجريبية.
- التطبيقية وتعليم الصفوة^(١).

(١) الأصول الفلسفية للتربية، شبل بدران وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، الطبعة الأولى،

١٩٩٤م ص ١٠٨ - ١١٠ و ٢٤٤٥ - ٢٤٧

المبحث الثاني

العمل الأخلاقي في الفلسفة الواقعية

ظهرت الفلسفة الواقعية لتناقض أفكار ومنطلقات الفلسفة المثالية، والتعارض بين المثالية والواقعية يكمن في فكرة أساسية وهي: أن المثالية تنكر العالم المادي، وترى أن العالم الحقيقي الوحيد هو عالم المثل. في حين أن الفلسفة الواقعية تؤمن بالواقع المادي المحسوس وأن هذا الواقع مصدر كل الحقائق^(١).

نشأة الفلسفة الواقعية:

ظهرت الفلسفة الواقعية بمعناها الصحيح في القرن التاسع عشر، غير أن جذورها عند أرسطو (٢٨٤-٣٢٢ ق.م)، حيث يمكن تسميته بأبي الواقعية وقد نجح أرسطو في تحويل أفكار اليونان من التفكير في عالم الخيال والمثال إلى العالم الذي نعيش فيه، ثم طورها الإنجليزي جون لوك (١٧٠٤-١٦٣٢ م). كما ساعد التقدم السريع في العلوم الحديثة وانتشار التصنيع على انتشار الاتجاه الواقعي^(٢).

أسس الفلسفة الواقعية:

يمكن عرض أهم الأسس والمبادئ الرئيسة التي يلتقي عندها التفلسف الواقعي في:

١- أن العالم الطبيعي المادي (الحقيقي) له وجود مستقل عن الفكر:

فالعالم الطبيعي أساسه مادي، ووجوده حقيقي، وهو قائم بذاته، ومستقل عن العقل أو الفكر، وما العقل إلا محصلة التجارب والخبرات الحسية المستمدة من عالم المادة.

(١) أصول التربية، أحمد عبده الحاج محمد، دار المناهج، عمان، الأردن، ٢٠٠٣ م، ص ١٣٩ .

(٢) مدخل إلى أصول التربية العامة، محمد عبد الرحمن الدخيل، ونبيل أحمد عبد الهادي، دار الخريجي. الرياض،

١٤٢٤ هـ. ص ٥٥ و فلسفة التربية، هاتب عبد الرحمن صالح، عمان، د. ن.، ١٩٧٦ م، ص ٤٧

الميتافيزيقا الواقعية: جميعها تشترك في أنها صنعت من مادة خام، بمعنى أن لكل منها جانباً مادياً، وعلى الرغم من أنها جميعاً تشترك في جانبها المادي أو ما أسماه أرسطو بالهيوالة، إلا أن كل شيء من هذه الأشياء مختلف في طبيعته عن الأشياء الأخرى.

ومن ذلك يقول أرسطو بافتراض المادة/ الصورة Matter/ Hypothesis ويقضي هذا الافتراض أن الأشياء كما تتباين في الطرق التي تنتظم بها المادة حالة تكوينها، مما يؤدي إلى تمايز الأشياء وتباينها، فإن ثمة اختلافاً آخر يقع بين الأشياء في قدر كل من المادة والصورة من الشيء المحسوس، فالأشياء السفلى تغلب عليها المادة أكثر مما تغلب الصورة، فالأرض أقرب الأشياء إلى المادة النقية أو المادة الأولى الخالصة، وكلما ارتفعنا إلى أعلى سادت الصورة وغلبت على المادة، وهكذا كلما تحركنا من أسفل إلى أعلى فإن الأشياء تتحرك نحو صورة أكثر ومادة أقل، حتى يصل الأمر في النهاية إلى صورة خالصة بلا مادة وهي التي أسماها بالمشرك الأول أو الله.

٢- التكافل بين الحواس والعقل:

حيث ترى الواقعية أن الحواس باعتبارها أدوات للعقل، تنقل وقائع العالم الخارجي وصورته إلى عقل الإنسان، فيدرك العالم ويتفاعل مع بيئته، ويرى الواقعيون أنه يمكن التغلب على خداع الحواس وقصورها بإخضاعها لسيطرة العقل وإحكامه والاستعانة بالمنهج العلمي.

٣- المزج بين الجسم والعقل:

يتفق الواقعيون أن الإنسان أحد أفراد النوع الحيواني، وأنه جزء من هذا العالم، وخاضع لقوانينه، وأنه يتكون من عقل وجسم متحدين.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة النشوء والارتقاء بين الكائنات عند أرسطو، وذلك طبقاً لما هو كائن من اختلاف في علاقة الصورة بالمادة فيما بينها تختلف عن نفس الفكرة عند عالم البيولوجيا دارون، حيث تنفي تماماً فكرة أرسطو الارتقاء من نوع إلى آخر من الموجودات،

حيث يقول أرسطو بأزلية وأبدية الموجودات، فالإنسان هو الإنسان منذ خلقته، ولم ينجم عن حيوان آخر أدنى منه من جراء الارتقاء الحادث في العلاقة بين الصورة والمادة، وإنما الارتقاء في نظر أرسطو هو الاتجاه في نفس الشيء من مادة أكثر وصورة أقل إلى مادة أقل وصورة أكثر، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التحديد والتمايز بين الأنواع دون التحول من نوع إلى نوع آخر، في حين قال دارون بفكرة الارتقاء فيما بين الأنواع.

٤- المعرفة عملية استكشاف العالم المادي:

الحقيقة سابقة في الوجود للإنسان، وعلى الإنسان السعي وراء المعرفة واكتشاف القوانين والمبادئ الموجودة في العالم؛ لذا ينكر الواقعيون وجود أفكار فطرية في الإنسان، أي أنه يولد وعقله صفحة بيضاء. ومصدر المعرفة هي حقائق ومفاهيم قائمة بذاتها ومستقلة عن العقل، وأن العقل يكتشفها ويكتسبها نتيجة لمروءه بالخبرات.

٥- التغير صفة هذا العالم إلا أن الحقائق ثابتة:

ترى الواقعية أن الطبيعة وعناصرها نامية ومتغيرة، إلا أن هذا التغير نسبي كون العالم خاضعاً لقوانين ليس للإنسان إلا سلطة قليلة عليه.

٦- معيارية القيم الاجتماعية:

تؤمن الواقعية بأن الحسن ما استحسسه المجتمع، والقبيح هو ما يراه قبيحاً، أي أن القيم معيارها المجتمع، فالقيم في الواقعية متغيرة^(١).

(١) ينظر: أصول التربية، محمد عبده الحاج، ص ١٤٢ - ١٤٥ و تطور الفكر التربوي عبر القرون. عماد عطية،

مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠١٠م، ص ١١٨ - ١١٩

مذاهب الفلسفة الواقعية:

وكما أن المثالية تعددت مذاهبها فكذلك الواقعية تعددت مذاهبها؛ فالواقعية الأفلاطونية تقرر أن المثل باعتبار ذاتها أحق بالوجود من الأشياء المحسوسة؛ لأنها صور روحانية، موجودة خارج العقل الانساني، في عالم حقيقي يسمّى بعالم المثل، ونسبة هذه المثل إلى صور العالم المحسوس كنسبة الموجودات الحقيقية إلى صورها التي في المرآة. والواقعية التي انتشرت في القرون الوسطى تقرر أن للكليات وجودًا مستقلًا عن الأشياء التي تمثلها.

ولقد تبلورت الفلسفة الواقعية الحديثة في عدد من المذاهب الأوربية بدءًا من القرن السادس عشر على النحو التالي:

١- المذهب الإنساني الواقعي:

ساد خلال القرن السادس عشر، وقد اهتم بدراسة الآداب اليونانية والكلاسيكيات القديمة للاستفادة منها في واقع الحياة التجريبية، وذلك من خلال معرفة تراث الماضين، معرفة الدوافع الإنسانية ونظم الحياة البشرية، وايضاً لمعرفة الحقائق التاريخية والعلمية^(١).

٢- المذهب الاجتماعي الواقعي:

ساد هذا المذهب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان يدعو إلى اعتبار التربية العملية ذات مضمون اجتماعي، وأنها تعد الإنسان للمستوى الذي يجعله يفهم حقوقه وواجباته، ويكون ذلك من خلال تحقيق الحياة الاجتماعية الناجحة والسعيدة للفرد، وتهذيب أخلاقه، وتشكيل ميوله وطباعه، وتنمية قدراته واتجاهاته بما يجعله عضوًا نافعًا في حياته العملية^(٢).

(١) فلسفات التربية، إبراهيم ناصر، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٤م، ص ١٠٢

(٢) السابق، ص ١٠٥

٣- المذهب الحسي الواقعي:

ساد خلال القرن السابع عشر، ويهتم أصحابه بدراسة الظواهر بالطريقة استقرائية عملية، حيث قام هذا المذهب على الإعلاء من شأن الحواس، ومن شأن الإدراك الحسي في اكتساب المعرفة في عملية التربية^(١).

٤- المذهب الطبيعي الواقعي:

ساد خلال القرن الثامن عشر، ويعتمد على استخدام التربية كأداة للإصلاح الاجتماعي، وأن تكون الأولوية للعلوم الطبيعية في المناهج، وبهذه الدعوة تبلورت الحركة العلمية للتربية^(٢).

والواقعية مذهب يقول: إن الوجود مستقل عن معرفتنا الفعلية به؛ لأن الوجود غير الإدراك. كما أنه يرى أن الوجود بطبيعته شيء آخر غير الفكر، فلا يمكنك أن تستخرج الوجود من الفكر على سبيل التضمن، ولا أن تعبر عن الوجود بحدود منطقية تامة ووافية. والواقعية مذهب من يرى أن الفكر الفردي يكشف بواسطة الحدس المباشر عن اللا أنا، من جهة ما هو متميز عن الأنا. وتسمى هذه الواقعية عند هاملتون بالواقعية الطبيعية. ويطلق اصطلاح الحقيقة الواقعية أو الوجودية على مجموع الأشياء الحاصلة بالفعل، كما في قول رينان: ليت الأموات يعودون إلينا ليطلعونا على ما وجدوه في الآخرة من الحقائق الواقعية. والواقعية المتكثرة اصطلاح استعمله روه للدلالة على المذهب الذي يقرر أن هنالك حقائق وجودية كثيرة ليس بينها قياس مشترك، مثل: الوجود الحسي، والوجود المنطقي والرياضي، والوجود الأخلاقي. وتسمى هذه الواقعية بمذهب تعدد الحقائق^(٣).

(١) فلسفات التربية ص ١٠٧

(٢) فلسفة التربية، إبراهيم ناصر، ص ١٠٧

(٣) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٢/ ٥٥٢ - ٥٥٣ بتصرف يسير.

فالواقعية مذهب ينطلق في تفسيره للظواهر وتحليلها من عالم الحياة والمادة وطبائع الأشياء، بالربط بين قوانينها؛ فالواقعي مادي ووضعي ونفعي، وما ذلك إلا لارتباطه في التفسير بهذه الأمور على أنها أسباب أو نتائج؛ فالقوانين أسباب، والنفع نتائج.

وعلى ما سبق فإن أي حُلُق في الفلسفات الواقعية ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو مقصود لما يترتب عليه من أثر محسوس، سواء أكان ماديًا أم معنويًا؛ فالغاية عند الواقعي ليست فيما بعد الطبيعة؛ فرمما كان الغرض منفعة مالية، أو لذة نفسية، أو مكانة اجتماعية، أو كلمة شكر أو شهرة، وربما كان بدافع الخوف من عقاب قانون، أو ضياع مكسب لا يدركه بغير الأخلاق.

وتمتاز الفلسفات المادية بأنها تسعى لتحقيق أكبر قدر من التطور المادي؛ لتثبت للعالم صدق تصوراتها، ولن يكون ذلك إلا إذا أنتجت هذه الفلسفات منتجًا جديدًا متقنًا على أرقى ما يكون من الجودة، وحسن الصنعة والهيئة معًا.

ولذلك نجد أصحاب هذه الفلسفات دائماً ما يربطون بين تقدم الاتجاه الفلسفي المادي أو الواقعي وبين تقدم العلوم الطبيعية بصفة عامة، وكأنه لو لم يكن هذا الاتجاه المادي قائماً لما قامت هذه الصناعات بهذه المواصفات المعيارية فائقة الجودة، ومن ذلك على سبيل المثال ما قيل حول ما يخص مرحلة النهضة الصناعية الأولى في فرنسا: (ومع الأفكار العلمية الجديدة، أفكار الرياضيات والفيزياء والميكانيك والفيزيولوجيا والطب، بدأت الآراء الفلسفية المادية تشق طريقها إلى أذهان الناس)^(١)، فالقارئ لهذا النص يشعر وكأن ما استجد من علوم ومفاهيم لديهم، وما نشأ عندهم من تطور صناعي وتقني وعلمي لا بد وأن يؤدي بطريقة حتمية إلى التصور المادي، بحيث يفهم أنه لن يكون متقدماً في هذه المجالات إلا إذا كان ماديًا بحثًا، أو

(١) موجز تاريخ الفلسفة، تأليف: جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم: د. توفيق سلوم، الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م. ص ١٩٣

—بتعبير أعم— واقعياً. (وقد كان الاتجاه المادي حريصاً على الالتصاق بهذه العلوم التي يظهر أنها تمثل لهم نوعاً من الدعم في الحضور الاجتماعي، وقد سعى أصحاب هذا الاتجاه في هذه الفترة على تبسيط أقوالهم؛ لتصل وتؤثر في كل الناس، ولاسيما المتعلمين منهم)^(١).

وإذا كانت الفلسفات الواقعية تتداخل أحياناً مع الفلسفات المثالية من حيث الوجود، وتقسيمة إلى وجود مادي ووجود مثالي فإن بعض الاتجاهات الواقعية قد غالت في الوجود المادي، حتى أنها نفت أي وجود لا يقع تحت الحواس الخمس، وربما طعنوا في مسلمات العقل؛ لأنها لا تنتج شيئاً محسوساً. وساعدهم على ذلك وشد من أزرهم ما كان من تطور صناعي وتقني، ارتقت فيه الجودة في المنتج إلى حد مطابقة الواقع مطابقة تامة في كثير من الأحيان؛ فكان الإتقان، أو الجودة في الفلسفات الواقعية سبباً لانتشارها، وتشدد أصحابها، بل وتطرف بعضهم، حتى أنه فصل العلم عن الدين، بل وجعلهما ضدين لا يلتقيان، وعن هذا الاتجاه نشأت العلمانية^(٢)، والاشتراكية^(٣)، والوضعية^(٤).

(١) النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية، حسن الأسيري، (١/ ١٩١)

(٢) العلمانية **SECULARISM** وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيداً عن الدين. وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم **SCIENCE** وقد ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، تحت إشراف: د/ مانع بن حماد الجهني، (٢/ ٦٧٩)

(٣) الاشتراكية: هي اصطلاح يطلق على المذهب القائل: ان مجرد الاعتماد على حرية الأفراد في الحياة الاقتصادية لا يكفي لإيجاد نظام اجتماعي صالح والمذاهب، الاشتراكية كثيرة منها: اشتراكية التكافل، والاشتراكية التعاونية، والاشتراكية الجماعية والشيوعية الفوضوية والاشتراكية الثورية والاشتراكية الخيالية والاشتراكية التجريبية، وكل هذه الأنواع تشترك في الأصول الآتية: الإيمان بالحمية الاجتماعية، تنظيم قوى الانتاج وربط الوظائف الاقتصادية بالدولة أو بالمراكز الموجهة، بمعنى أن تكون الدولة هي المسؤولة عن صناعة الوظيفة، الاعتقاد ان العمل هو الأساس الشرعي لكل تملك، أي أنه لا يصح أن يؤول ملك لأحد بلا عمل ومن ذلك الميراث، ومن أشهر من نادى بها وتبناها: كارل

=

وربما غاب عن كثير ممن تبني هذه الفلسفات الواقعية أن الإتقان أو الجودة في العمل مطلب فطري في الإنسان؛ فالإنسان بفطرته يبحث عن الأجود، ربما كان البحث عن الأجود له أسبابه، ولكنه بحث فطري، لا يحتاج إلى إيجاد أسباب مادية تكون مقدمة لطلبه، وكذا الحال أيضاً في الأخلاق عموماً؛ فإن الأخلاق متى ما ارتبطت بالمادة فقد اختلت قيمتها.

نظرة الفلسفة الواقعية للأخلاق والقيم:

توصف القيم في الفلسفة الواقعية بأنها حقائق موضوعية متعددة، تختلف باختلاف المجتمع والفترة الزمنية والمتغيرات الثقافية والواقع العملي، ولا تعترف بوجود مثال أو نموذج مطلق ثابت، ومعيار القيم في هذه الفلسفة هو تحقيق الخير والمنفعة لأكبر عدد من الناس.^(١)

كما يعتقد الواقعيون أن الإنسان حرٌّ، فإن أفعاله تتم كما يختار هو في ضوء فهمه لأمور حياته، ولكن حرية الإنسان حدود تقف عندها.

وعندما تطرق أرسطو إلى العقل الإنساني ربطه بفكرتي (القوة) و(الفعل) إذ إن للعقل الإنساني وجوداً بالقوة لدى جميع البشر، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، إلا أن هذا العقل لكي يقوم بدوره في الفكر والإدراك، لابد من أن يخرج من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل، أو بتغيير آخر من حيز الإمكان أو الاستعداد لتحصيل المعرفة والعلم إلى حيز الفعل

ماركس. ينظر : المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ١/٨٨-٩٠ وأيضا : الإسلام والمذاهب الاشتراكية ، أبو شكيب محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، ط الثالثة ١٩٧٠م ١٣٩٠هـ

(٤) المذهب الوضعي: مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي الذهن على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها. تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت ، وهو الذي نادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعي يقوم على أساس عبادة الإنسانية كفكرة تحل محل الله - سبحانه وتعالى - في الأديان السماوية. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ١/٨١١

(١) الفكر التربوي مدارسه واتجاهات تطوره، محمد زيادة وآخرون، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٧هـ. ص ١٩٥

أي حالة التحصيل والعلم بالفعل، وبالتالي فإن ثمة وجودًا بالقوة وآخر بالفعل، فالطفل الصغير يحوي سائر أعضاء الجسد كالرجل الكبير، إلا أن بعضًا من هذه الأعضاء كالجهاز التناسلي لا تؤدي غدده وظائفها إلا عند البلوغ، فهي لها وجود بالقوة قبل البلوغ كأعضاء موجودة، ولها وجودها بالفعل بعد البلوغ كأعضاء تؤدي وظيفة وعمل، إذ تؤدي وظائفها عند هذه الفترة، ويمكن إعادة صياغة القول بوجود العقل بالقوة والعقل بالفعل بصورة أخرى وهي أن ثمة عقلًا قابلاً، ويقصد به العقل القادر على التفكير قبل أن يفكر الإنسان، والعقل الفاعل وهو ذلك العقل الذي يستخدم القدرة على التفكير والقيام الفعلي بعملية التفكير.

ويقسم أرسطو العقل الفاعل -العقل حالة ممارسته التفكير- إلى قسمين: أحدهما: يعمل على مستوى النفس النامية والحاسة، إذ يتعامل مع المستوى النباتي وما يتصل به من تغذية ونمو وتكاثر، ومع المستوى الحيواني وما يتصل به من حسي وحركة وشعور، وهو يعمل على توجيه الإنسان توجيهًا يتفق والقانون الأخلاقي المعمول به في الجماعة، ويسمى هنا العقل بالعقل العلمي، وأما الآخر فيسمى بالعقل النظري وهو يعمل على مستوى التأمل في طبيعة الأفكار.

العمل الأخلاقي بين المثالية والواقعية:

مما سبق عرضه عن كل من الفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية يتبين أنهما متضادتان ظاهراً، غير أن المتأمل في تفاصيل كل منهما يجد توافقاً في مواضع كثيرة؛ فالمثالية واقعية من حيث إنها تثبت عالم المثال واقعاً لا يجوز إنكاره، والواقعية مثالية من حيث إنها تصور الواقع تصويراً دقيقاً بكل تفاصيله؛ فهي ترى الواقع هو المثال الذي ينبغي أن يطابقه التصوير أو التصور، كما أن كلا من المثالية والواقعية لا تعنى بشيء من داخل الإنسان، ولكن جميعه من الخارج، سواء من

عالم المثل أو من عالم المادة، أو بعبارة أخرى: الفرق بين الواقعية والمثالية هو (أن الأولى تصور الطبيعة كما هي، على حين أن الثانية تصورها كما يجب أن تكون)^(١).

وستكون المقارنة بين الفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية في نظر كل منهما للعمل الأخلاقي من خلال عدة محاور، وهي:

أولاً- وجوب العمل الأخلاقي:

إذا كانت الفلسفة المثالية ترى وجوب العمل الأخلاقي لذاته، لا لشيء خارج عنه كأسبابه ونتائجه؛ فإن الفلسفة الواقعية لا ترى ذلك، بل ترى وجوب العمل الأخلاقي لما يترتب عليه، سواء أكانت منفعة عند النفعيين، أم لذة في المذهب الأبيقوري^(٢)، أو غير ذلك من الآثار النفسية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية.

ثانياً- قيمة العمل الأخلاقي:

الفلسفة المثالية تختلف مع الفلسفة الواقعية في قيمة العمل الأخلاقي؛ فالمثالية ترى قيمة العمل الأخلاقي ذاتية، نابعة من كونه أخلاقياً، والواقعية ترى قيمته فيما ينتجه من آثار، أو فيما يدعو إليه من أسباب، أي إن الأخلاق في الواقعية غائية.

المثل الأفلاطونية حقائق خالدة، لا تفسر، وإنما الذى يفسر هو الكائن المحسوس، والمثل عند أفلاطون هو مبدأ الوجود؛ لأنه لا حقيقة للأشياء المحسوسة، إلا بما تحتوى عليه ماهيتها،

(١) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ١٨ / ٢

(٢) المذهب الأبيقوري هو مذهب اللذة، وهو مذهب قديم جديد في نفس الوقت، فهو قد تأسس بالفعل في العهد اليوناني القديم، وظهر بثوبه الجديد في مذهب المنفعة الذي نادى به فلاسفة أوروبا في الوقت الحاضر. ومن أبرز شخصياته القديمة والجديدة: الفيلسوف أبيقور اليوناني ٣٤٣ - ٢٧٠ ق. م وفي العصر الحديث: جيرمي بنتام ١٧٤٨ - ١٨٢٣ م. وجون ستوارت ميل ١٨٠٦ - ١٨٧٣ م وجون لوك ١٦٣٢ - ١٧٠٤ م. وثلاثهم إنجليز. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٧٩٠) باختصار

والتي تصل بينها وبين عالم المثل، وبهذا يقوم المثل في الفلسفة الأفلاطونية بوظيفة العلة المفسرة للعالم الطبيعي ..

وينتقد أرسطو فكرة المثل الأفلاطونية، ويرى أن السعادة هي العلة الغائية لاكتساب الفضيلة، فالإنسان غير مطبوع على الفضيلة، وإنما مطبوع على قبولها عن طريق الاكتساب الإرادى بالمران والممارسة، ويتعلق الأمر بأصحاب القوانين، فالعقل إنما يخاطب القلة من الناس.^(١)

ثالثاً- شروط العمل الأخلاقي:

تختلف المثالية مع الواقعية - أيضاً- في شروط العمل الأخلاقي، فالمثالية لا توجب شرطاً لوقوع الفعل الأخلاقي سوى الإرادة الخيرة، والواقعية توجب إرادة غير مشروطة بالخير، وكذلك تجعل للعمل الأخلاقي شروطاً واقعية مثل: استطاعة القائم بالعمل الأخلاقي، وتجنب مخاوفه، والتطلع إلى تحقيق ما يترتب على هذا العمل الأخلاقي من محابه ورغباته.

رابعاً- كمال العمل الأخلاقي:

تختلف المثالية والواقعية في كمال العمل الأخلاقي أيضاً؛ فالمثالية ترى الكمال في المثل الصورية، والواقعية ترى الكمال في الواقع المادي، ويتفق كل من المثالية والواقعية في أن التقصير الحاصل إنما هو من العامل؛ ففي المثالية يقع التقصير في رقي العمل الأخلاقي من العامل، حيث لم يتصور المثل على الوجه الأكمل؛ فجاء العمل على قدر ما تصور من مثاله، وفي الواقعية يقع التقصير من العامل حيث إنه لم يطابق الواقع مطابقة تامة، فنقص من عمله الأخلاقي بحسب ما نقص من مطابقته للكمال الواقعي.

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار المعارف، مصر، ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م، ص ٢٥

الفصل الثاني العمل الأخلاقي في الإسلام

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الأخلاق وأهميتها وخصائصها في الإسلام
- المبحث الثاني: مصادر الأخلاق وبواعث التزامها في الإسلام
- المبحث الثالث: الضمير والعقل بين الإسلام والمذاهب الفلسفية

المبحث الأول

الأخلاق وأهميتها وخصائصها في الإسلام

الإسلام يرى الإنسان مكوناً من جسد وروح، وله ظاهر وباطن، والأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، والتي محلها القلب، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم، فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق^(١)، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))^(٣)

ويقول صلى الله عليه وسلم -أيضاً-: ((لينتهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده^(٤) الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب))^(٥)

(١) انظر: التربية الأخلاقية، أباذير حكيم، مطبعة اليقظة بالفجالة، مصر، ١٩٢٢م، ص: ١١٨.

(٢) الحجرات: ١٣

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) (من الجعل): بضم جيم وفتح عين، وهو دويبة سوداء تريد الغائط، يقال لها الخنفساء فقوله: (الذي يدهده الخراء أي: يدرجه بأنفه): صفة كاشفة له، والخراء بفتح الخاء والراء مقصورا. وفي نسخة بالمد، وفي نسخة مصححة بكسر الخاء ممدودا وهو العذرة. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٧٢)

(٥) رواه الترمذي (٣٩٥٥) واللفظ له، وأحمد (٢/ ٣٦١) (٨٧٢١). وحسنه الترمذي، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٤٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٤٨٢.

ولقد جعل الإسلام العقيدة الأساس الأول الذي تصدر عنه الأخلاق الفاضلة، وارتباط الأخلاق بالعقيدة أمر معلوم لكل من له فكر وروية بأمور الإسلام، وهذا الارتباط يشكل ضماناً لثبات الأخلاق واستقرارها وعدم العبث بها، كما يعتبر في الوقت نفسه شجرة مثمرة طيبة لهذه العقيدة، يقول الشيخ محمود شلتوت في هذا المعنى: «إن العقيدة دون حُلُق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، وإن الخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر»^(١)

أما عن ارتباط الأخلاق بالشرعية، فالشرعية منها: العبادات، والمعاملات، وصلة الأخلاق بالعبادات لا تحتاج إلى تقرير، وصلتها بالمعاملات لا تنفك، وعلى هذا فإن العبادات والمعاملات إذا عريت عن الأخلاق لا تغني عن صاحبها شيئاً...

وتظهر أهمية الأخلاق الإسلامية بما تتركه من آثار في سلوك الفرد، وفي سلوك المجتمع. أما أثرها في سلوك الفرد فيما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع... وغير ذلك من القيم والأخلاق السامية، فالأخلاق بالنسبة للفرد هي أساس الفلاح والنجاح، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢).

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(٣)، والتزكية في مدلولها ومعناها: تعني: تهذيب النفس باطنًا وظاهرًا، في حركاته وسكناته^(٤).

(١) الإسلام عقيدة وشرعية، للإمام محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الثامنة عشر، ٢٠٠١م، ٤/ ٤٣.

(٢) الشمس: ٩ - ١٠

(٣) الأعلى: ١٤ - ١٥

(٤) خلق المسلم الشيخ: محمد الغزالي، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص: ١٥

وأما أثرها في سلوك المجتمع كله، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أو غير إسلامية، يقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١)

الأخلاق في الإسلام بين الكسب والوهب:

ذهب الجاحظ إلى ((أن الخلق هو: حال النفس، بما يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة))^(٢)

ومعنى كلام الجاحظ أنه يقسم الأخلاق من حيث الكسب والوهب إلى قسمين، منها ما هو وهبي أو طبعي أو غريزي -بحسب ما قال بالطبع والغريزة- ومنها ما هو كسبي بالترويض والتريض، ولكنه لم يحدد أيها يكون طبعياً أو غريزياً، وأيها يكون كسبياً، وذلك؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يحدد نوعاً معيناً من الأخلاق لكل قسم منهما، فلربما كان بعض الأخلاق الحميدة في شخص ما طبعاً، وفي غيره كسباً، وهكذا.

وابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق" يوافق الجاحظ في تعريف الأخلاق بقوله: ((الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفرغ من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي

(١) العصر: ١ - ٣

(٢) تهذيب الأخلاق للجاحظ، دار الصحابة للتراث، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص ١٢.

يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً^(١)

أما الجرجاني فإنه لا يرى هذه القسمة الأخلاقية بين الكسب والوهب؛ فيقول: "الخلق" عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التي تصدر عنها هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا^(٢)

أهمية علم الأخلاق في الفكر الإسلامي:

وأهمية علم الأخلاق في الفكر الإسلامي تتمثل في:

- ١- بيان حقائق القيم الأخلاقية الإسلامية ومبادئها ومبادئها.
- ٢- التبصير بشمولية روح الأخلاق الإسلامية على كل تصرفات وسلوكيات الناس الفردية والاجتماعية.
- ٣- إبراز أهمية القيم الأخلاقية الإسلامية وأثرها من الناحية العلمية والاجتماعية والإنسانية والحضارية المادية والمعنوية.
- ٤- إظهار خصائص ومميزات القيم الإسلامية بالنسبة إلى الأخلاقيات البشرية الوضعية.
- ٥- وضع المعايير الخلقية الإسلامية أمام المتعلمين؛ ليستطيعوا توجيه سلوكهم وتقييم السلوكيات في ضوءها.

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: ٤٢١هـ) حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى، ص ٤١.

(٢) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) الحقن: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٣٦

- ٦- تكوين القناعة بثبات القيم الأخلاقية الإسلامية، وأنها ليست خاضعة للتغيرات الاجتماعية، بل إن التغيير والتكوين الاجتماعي يجب أن يخضع لهذه القيم.
- ٧- تكوين الإيمان بالعلاقات الثابتة والمتينة بين العقيدة الإسلامية والقيم الأخلاقية الإسلامية.
- ٨- تكوين الشعور بالمحبة للفضائل والكراهية والنفور من الرذائل والشور.
- ٩- تنمية الميل نحو العمل بالقيم الأخلاقية، والدعوة إليها ما استطاع المعلم إلى ذلك سبيلاً.^(١)

خصائص الأخلاق في الإسلام:

تتماز الأخلاق الإسلامية بمنظومة من الخصائص العظيمة الجميلة التي تعكس روح الإسلام وجماله وجاذبيته، وإليك بيان جملة من هذه الخصائص:

أولاً- ربانية المصدر:

الإسلام كله عقائده وعبادته ومعاملاته وأخلاقه وسلوكياته من عند الله جل وعلا، وما من أمر من أمور الإسلام إلا وهو يستمد تعاليمه ونظمه ومبادئه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعنى أن الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر أي أنها من الله تعالى هو الذي أمر بها وحث عليها ورغب فيها، ونهى عما يخالفها وحذر منه إما في القرآن الكريم أو في سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الصبور شاهين، طبعة الرسالة، ط عاشر،

أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، وأثنى عليه بالخلق العظيم؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وكانت تزكية النفوس محورًا من محاور دعوته عليه الصلاة والسلام ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: "وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل - عليه السلام - فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها فبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدا من الأولين ولا يعطيه أحدا من الآخرين فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين"^(٣).

إن تزكية النفوس تطهيرها وتنمية الخير فيها، وصيانتها من الانحراف والفساد، وكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الخلق العظيم كان بوحى من الله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٤).

(١) القلم: ٤

(٢) الجمعة: ٢

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)

الحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م. ٨ / ١١٦

(٤) النجم: ٣ - ٤

إن ربانية هذه الأخلاق تعطيها ثقة وقبولاً، وتجعلها في موضع الرضا والتسليم، لخلوها من التناقض والاختلاف والغموض.

إن ربانية هذه الأخلاق جعلتها في غاية الوضوح والجمال فهي تدعو إلى نفسها بنفسها، بخلاف القيم الوضعية التي تحتاج إلى وسائل بهرجة وتزيين لإلباسها ثوب الزواج والقبول الذي قد لا تتصف به على الحقيقة.

لقد رأينا فيما مضى أن مصادر الأخلاق الوضعية يكتنفها النقص والتناقض، وتختلف باختلاف الزمان والمكان والثقافات مما عكر صفوها، وجعل تعميمها وشمولها غير متاح ولا ممكن.

إن خاصية (الربانية) في الأخلاق الإسلامية كالرأس للجسد والروح للحياة، لا قيام للأخلاق بدونه، فكل ما يأتي بعد ذلك من الخصائص تبع لهذه الخاصية سائر تحت لوائها.

إن الله تعالى وصف كتابه بأنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١) ووصف رسوله بأنه لا ينطق عن الهوى مما جعل كل أمر من أمور هذا الدين غاية في الكمال ومراعاة مصالح العباد .

وإذا تأملت الأخلاق الإسلامية وجدتها تدور في هذا الفلك الجميل، فكل خلق يكمل الآخر ويجانسه ويرسخه، وسيظهر لك أيها القارئ الكريم مصداق هذا في ثنايا هذه المباحث القيمة موضحاً بأدلته من الكتاب والسنة.

وبعد هذا يمكننا القول:

إن المنهج الرباني الأخلاقي الذي جاء به الإسلام هو الأصلح مطلقا ليكون أساسا للأخلاق ومعيارا تقاس به السلوكيات وتحتكم إليه، وذلك لما له من الخصائص العظيمة التي يأتي ذكرها، مع مراعاته للعقل والعادات والأعراف التي لا تخالف الشرع.

ثانيا- الشمول والعموم:

إن من أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية أنها شاملة شأنها في ذلك شأن الدين كله في شموله وعمومه، ذلك أن الإسلام آخر الأديان، ورسوله صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وخاتمهم، وجاء القرآن الكريم وحيا من الله جل وعلا مراعيًا لهذا الأمر.

بيّن القرآن الكريم علاقة الإنسان بربه وخالقه جل وعلا، وبيّن علاقة الإنسان بنفسه وما يجب عليه من صيانتها وحفظها، وكذلك علاقة الإنسان بغيره من بني جنسه، بل وتعدى إلى ذكر ما يجب عليه من الرفق والتعامل برحمة مع المخلوقات التي تعيش حوله، أو ينتفع بها بوجه ما.

إنك تدرك شمول خلق الإسلام وهو يخاطب بدعوته الجن والإنس، والعرب والعجم والأبيض والأسود على حد سواء ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

فإذا كانت دعوته عامة شاملة فكذلك قيمه الأخلاقية ومبادئه توافق هذا الشمول ولا تختزله في بعض جوانبه أو تمارسه على بعض الفئات من أتباعه دون بعض.

(١) الذاريات: ٥٦

(٢) الحجرات: ١٣

تدبر هذه الآية الكريمة لترى خطابه الشامل وهو يدعو إلى الأخلاق ويأمر بها ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(١).

"يا أمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإنه عدو آدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم وعداوته ظاهرة بينة".^(٢) إنها دعوة عامة للقول الطيب والعفة في المنطق بجميع أنواعه في كل حال ومع كل أحد .

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)

وتزخر السنة النبوية بالكثير من الأدلة العامة والخاصة التي تدعو إلى حسن الخلق، وتحث على التعامل به، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ((اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن))^(٤).

إن الأمر بالتقوى حيثما كان المرء هو أعظم دليل على شمول الأخلاق الإسلامية للإنسان في جميع أحواله في السر والعلن والرضا والغضب، على أي حال كان، وفي أي زمان.

(١) الإسراء: ٥٣

(٢) تفسير ابن كثير، تحقيق: سلامة، ٨٦ / ٥ - ٨٧

(٣) النحل: ٩٠

(٤) سنن الترمذي، تحقيق: شاکر، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرته الناس، ٤ / ٣٥٥ برقم ١٩٨٧ عن

أبي ذر - رضي الله عنه -

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (وخالِقِ الناس بخلق حسن) أي: عامل الناس كل الناس دون استثناء بجميع الأخلاق الحسنة التي تحب أن يعاملوك بها.

ولقد أجمال الإسلام في ذكر الأخلاق، وفصل فيها، وبيّن؛ ليرفع اللبس عن الناس فيما يلزمهم فعله والتحلي به، وما يلزمهم تركه واجتنابه.

وشمول الأخلاق في الإسلام نعي به أن دائرة الأخلاق الإسلامية واسعة جدًا، فهي تشمل جميع أعمال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره، سواء كان الغير فردًا أم جماعة أم دولة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق، ولزوم مراعاة معانيها، مما لا نجد له نظيرًا في أية شريعة سماوية سابقة، ولا في أي قانون وضعي بشري.

ثالثًا- الثبات واللزوم:

من خصائص الأخلاق الإسلامية أنها ثابتة في مبادئها وحقائقها وحدودها، فالصدق خلق حميد دائمًا لا يمكن ذلك في زمان دون آخر أو لدى جيل دون غيره، وهذا الثبات يضمن دقة المعايير واستقرار القيم وصحة التربية.

نعم قد يتطور عرض الأخلاق لكنه في الحقيقة تطور شكلي، ومن الأصول العامة المشتركة بين الرسالات السماوية الدعوة إلى الأخلاق الحميدة، واجتناب الرذائل، وهذه قمة الدلالة على ثبات الأخلاق كما نلاحظ ذلك في كل فطرة سليمة في أي جيل أو عند أصحاب أي مذهب .

ومن صور الثبات في الأخلاق ولزومها على كل حال أن " الالتزام بمقتضى الأخلاق مطلوب في الوسائل والغايات، فلا يجوز الوصول إلى الغاية الشريفة بالوسيلة الخسيسة، ولهذا لا مكان في مفاهيم الأخلاق الإسلامية للمبدأ الخبيث، كقول أصحاب المفاهيم المادية البحتة

(الغاية تبرر الوسيلة)^(١) وهو مبدأ لا مكان له في دستور الأخلاق الإسلامية، ومما يدل على ضرورة مشروعية الوسيلة ومراعاة معاني الأخلاق فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) [الأنفال/٧٢] فهذه الآية الكريمة توجب على المسلمين نصره إخوانهم المظلومين قياماً بحق الأخوة في الدين، ولكن إذا كانت نصرتهم تستلزم نقض العهد مع الكفار الظالمين لم تجز النصرة لأن واصلتها الخيانة ونقض العهد، والإسلام يمقت الخيانة ويكره الخائنين^(٣)

أثر هذه الخاصية في الأمة:

وبقدر ثبات الأخلاق وشيوع أثرها في حياة الناس بقدر ما تزدهر الأمم وتتقدم حتى ولو كانت غير مسلمة، فثبات المعايير أمر عظيم لا مكان فيه للمجاملات والرشاوى والنزوات الشخصية، قال ابن تيمية - رحمه الله - ((إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة)).

(١) ينسب هذا القول إلى المفكر الإيطالي "نيكولا ماكيافلي": (١٤٦٩ - ١٥٢٧) الذي سجله في كتابه «الأمير» وقدمه لأحد ملوك أوروبا في القرون الوسطى.. انظر: «القاموس السياسي» أحمد عطية الله، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، ص ١١٠٥ - ١١٠٦ وهذا المبدأ على إطلاقه تعقيد فاسد؛ لأن الغايات والوسائل كلها طاعات، ولا يجوز التوصل إلى طاعة الله بمعصيته. ينظر: معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ) دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ص: ٣٩٠

(٢) الأنفال: ٧٢

(٣) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة: التاسعة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ١٩

إن الخلق في منابع الإسلام الأولى -من كتاب وسنة- هو الدين كله، وهو الدنيا كلها، فإذا نقصت أمة حظاً من رفعة الله في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس، فبقدر نقصان فضائلها وانحزام خلقها.^(١)

رابعا- إقناع العقل وإشباع الوجدان (فطرية):

إن أي أمر يوافق الفطرة يسهل على النفس تقبله والقيام به، فقام الإسلام في تربية الفضائل على إقناع العقل وإشباع الوجدان والقلب بحب الخلق الكريم والالتزام به، وكره الخلق الذميم واجتنابه، وهذه صورة من صور العظمة في الأخلاق الإسلامية خاصة حيث لا يكون الأمر والنهي مطلقين أو مجردين عن بيان العلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

من تأمل هذه الآية يرى طريقة القرآن الكريم في النهي عن الغيبة حيث لم يكتفِ بالنهي اللفظي، بل أردف ذلك بصورة عقلية تمثيلية، تبين بشاعة هذا الخلق، فجمع بين اللفظ والصورة؛ ليتحقق بذلك الإقناع العقلي، الذي يدعو الإنسان إلى الترفع عن هذا الخلق.

إن الأوامر اللفظية المجردة في بعض الأوقات أو المواقف لا تحقق المرجو منها على الوجه التام، لكنها عندما تقترن بالصور العقلية التمثيلية تصبح أسهل، ويكون الإنسان أقدر على فهمها واستيعابها، وهذا ما تحققه الأخلاق الإسلامية حينما تخاطب الإنسان خطاباً إيمانياً عقلياً فتقنع العقل وتشبع الوجدان.

(١) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م ص ٤٣

(٢) الحجرات: ١٢

لقد شبه الله الغيبة بأكل لحم إنسان ميت، وهذا أمر يكرهه الإنسان السوي، ويشمئز منه الطبع السليم، ومن كره ذلك بطبعه فعليه أن يكرهه بموجب أمر الشرع، وهنا يجتمع للإنسان موافقة الشرع وحجة العقل.

وانظر كيف يقنع المنطق النبوي الإنسان بعدم الرجوع في هبته، قال صلى الله عليه وسلم: ((العائد في هبته كالكلب بقيء ثم يعود في قيئه)) (١)

ومع أهمية العقل وكونه أداة الفهم والتدبر والتأمل والاستنباط، فليس كل الناس لديهم أهلية استخدام العقل والاقتناع بموجباته، فهناك من يغلب عليه التأثير بالقلب والضمير، والاستجابة للفطرة والوحي الشريف لعلمه بصدور الأمر من الشرع، فيتأثر القلب به ويميل إليه، ومن هنا كانت سمة الأخلاق الإسلامية: الجمع بين الأمرين -العقل والفطرة- لموافقة أحوال جميع المخاطبين.

فمخاطبة القلب وإشباعه يحقق له السكينة والطمأنينة الكافية لاستجابته والتزامه بأوامر الشرع ونواهيه؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢) فالطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه.

إن القرآن الكريم لم يكن يلقي القول على علّاته، وإنما يأتي بالقضية مبرها عليها بالدليل تلو الدليل، فيرضي العقل ويطمئن النفس ويقود الضمير إلى الإيمان، ويقيه عشرات الشك والحيرة والضلال والوساوس، ويحرص على صحة الوجدان من الخلل؛ ليصبح المرء سيد نفسه، ويبدع في ميدان السلوك الأخلاقي، ويتحرر من براثن العادات المتحجرة، والتقاليد الزائفة، والأعراف البالية، ويكون مدركاً لفعله، نبياً في هدفه، فما الذي يدفع الإنسان إلى التحلي

(١) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها، ١٥٨ / ٣ برقم

بالفضائل والتخلي عن الرذائل والمصارعة في المعالي إن لم يكن هناك قناعات نفسية مشبعة وحاجات وجدانية متطلعة؟

إن الأخلاق الإسلامية تمتاز بمخاطبة العقل وإقناعه؛ لتحمل ذوي العقول والمنطق السوي على التزام مبادئها والتمسك بها، وهي كذلك تخاطب القلب والوجدان، وتشبعهما؛ لتكتمل الصورة الفريدة للأخلاق الإسلامية في جانبيها النظري العلمي والعملية التطبيقي.

اعتدال وشمول وتوسط فلا تركيز على العقل مع إهمال الوجدان، ولا العكس، وإنما مخاطبة شاملة في أعز ما يملك الإنسان ويتصف به من العقل والقلب والفكر والوجدان.

المبحث الثاني

مصادر الأخلاق وبواعث التزامها في الإسلام

الإسلام لم يجعل الأخلاق بين الناس بحسب أهوائهم، ولا بحسب ثقافتهم، أو ميولهم، ولا تركها لما تمليه عليهم ضمائرهم، أو إلى ما تستحسنه العقول فيما بينهم؛ فكل هذه المعايير مختلفة متباينة، لا تستقر على حال واحدة في المجتمع، بل إنها لا تستقر على حال واحدة لشخص واحد؛ فالإنسان متغير المصالح؛ فما يراه مصلحة اليوم ربما كان مفسدة في الغد، متقلب المزاج بين الكآبة والسرور والحزن والفرح، وحيث غلبت مصلحته، أو استدار مزاجه توجه بهواه وفكره، وحينئذ تتغير موازين الأخلاق لديه.

وكذلك لم يجعل الله تعالى الأخلاق في الإسلام موكولة إلى منفعة معينة، فموازين المنافع بين الناس مختلفة باختلاف مشاربهم؛ فما يكون لي نافعاً قد يكون لغيري ضاراً، وما يكون فيه مصلحتي قد تكمن فيه مفسدة لغيري، وهكذا.

ومن كل ما سبق نقول: إن الأخلاق لا يجوز أن تكون موكولة لبشر، يشرع فيها ما يشاء، أو يقول فيها بأمره من دون الله، وإنما الأخلاق يجب أن تكون لها مقاييس خاصة من حيث المصدر الذي يتلقى منه البشر أخلاقهم، وكذلك مقاييس في موجبات الإلزام بهذه الأخلاق؛ ولهذا جعلت هذا المبحث في مسألتين:

الأولى: مصادر الأخلاق في الإسلام.

الثانية: بواعث الإلزام الخلقي في الإسلام.

أولاً- مصادر الأخلاق في الإسلام:

تكاد تنحصر مصادر الأخلاق في الإسلام في مصدرين رئيسين: القرآن والسنة.

وتتمتاز مصادر الأخلاق في الإسلام بميزتين لا توجدان في مذهب من المذاهب الفكرية، وهما: العلو عن مصلحة الشارع، والقدسية، وميزة ثالثة لا توجد في دين غير دين الإسلام ألا وهي العصمة، تلك العصمة التي منعت وصول يد التحريف إلى نصوصه، وهي التي دفعت أتباعه إلى التضحية في سبيل حفظه ونشره ووصوله إلى العالم كافة، صحيحاً نقيّاً، لا يخالطه زيف ولا تشوبه شائبة تحريف.

المصدر الأول- القرآن الكريم:

أما القرآن فإنه عالج الأخلاق بصور شتى، وكان من ذلك:

الأمر المباشر:

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١) ومنه قوله جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣)

(١) البقرة: ٨٣

(٢) الإسراء: ٢٣ - ٢٤

(٣) الحجرات: ١١

القصص واستلهام العبرة:

وأما الأمر بطريق الخبر عن السابقين في قصصهم؛ فمن ذلك حكاية القرآن عما جرى من أنبياء الله تعالى مع أقوامهم، حين جاء الأنبياء بالتوحيد والأخلاق معاً، ومن ذلك تحذير نبي الله شعيب - عليه السلام - قومه من أكل الحقوق وبخس الناس أشياءهم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١)

وهذا نبي الله لوط - عليه السلام - ينبه قومه إلى ما يصلحهم وينهاهم عما يفسدهم في عملهم السيئ فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَيْنَكُم مِّن تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ (٢)

وقال لهم أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (٣)

أما استلهام العبرة فمنه في القرآن كثير جداً، يحكي الله تعالى قصص السابقين للاعتبار بحالهم ومآلهم، وتعلم الدروس مما جرى عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤)

وقال سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٥)

(١) الأعراف: ٨٥ - ٨٦

(٢) النمل: ٥٤ - ٥٥

(٣) هود: ٨٧

(٤) يوسف: ١١١

ومن هذه القصص: قصة صاحب الجنتين، الذي تفاخر على صاحبه وهو يحاوره بقوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(١) فكانت عاقبة فخره وكبره أن أهلك الله جنتيه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^(٢)

ومنها قصة قارون الذي لم يستجب لنصح قومه حين قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^(٣) وكان رده عليهم كبيرًا بما آتاه الله من علم؛ ظانًا أن علمه سبب قوته وكسبه، وأنكر فضل الله عليه، وتكبر على من حوله واختال بماله وجاهه؛ فجاءه الرد من الله ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَأَنَّه لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ^(٤)

بيان الأخلاق بالقُدوة:

إن الله تعالى جعل للمسلمين قدوة يقتدون بها، وأسوة يتأسون بطريقته، وذلك القدوة والأسوة إنما هو النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبر سبحانه المسلمين عن أخلاق النبي صلى الله

(٥) الحشر: ٢

(١) الكهف: ٣٤

(٢) الكهف: ٤٢

(٣) القصص: ٧٦ - ٧٧

(٤) القصص: ٨١ - ٨٣

عليه وسلم؛ ليتأسوا به في أخلاقه كما يتأسون به في عباداته ومعاملاته؛ فقال سبحانه واصفًا أخلاق نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢)

والأسوة به صلى الله عليه وسلم إنما تكون في كل أحواله، فكأن الله تعالى يقول للمسلمين كونوا كنبيكم في أخلاقه؛ فإنه على خلق عظيم فكونوا مثله.

المصدر الثاني - السنة النبوية:

تأتي السنة النبوية في المقام الثاني بعد القرآن الكريم في مصادر التشريع، ولا يعني ذلك أنها أقل رتبة من القرآن؛ فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣)

(قال ابن جريج: ما أعطاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم من معصيتي فاجتنبوه والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أمر أو نهي، أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصًا فلا اعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء أتنا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها، قال الماوردي: إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بإصلاح، ولا ينهي إلا عن فساد)^(٤)

(١) القلم: ٤

(٢) الأحزاب: ٢١

(٣) الحشر: ٧

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ١٤ / ٤٧

بل إن الله تعالى جعل طاعة الرسول من طاعته سبحانه؛ فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (١)

وجعل طاعة الرسول شرطاً لمحبة الله تعالى؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢)

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إني أوتيت الكتاب، ومثله معه» (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله» (٤)

من هذه المكانة العظيمة للسنة صارت مصدراً من مصادر التشريع، وتستقل بأحكام لم تأت في القرآن، وكما أنها مصدر للتشريع والعبادات فإنها أيضاً مصدر للسلوك والأخلاق.

صور التلقي الأخلاقي من السنة النبوية:

تعتبر السنة مصدراً للأخلاق بعدة صور:

أولها: فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

الثانية: إقراره صلى الله عليه وسلم لبعض السلوك سكوئاً أو مدحاً. (فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله)

الثالثة: التعليم والحوار.

(١) النساء: ٨٠

(٢) آل عمران: ٣١

(٣) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ٤ / ٢٠٠ برقم ٤٦٠٤. والحديث صحيح.

(٤) المستدرک للحاکم، کتاب العلم، ١ / ١٩١ برقم ٣٧١ وصححه.

الرابعة: التأديب والمران.

الصورة الأولى- فعل النبي صلى الله عليه وسلم:

يأتي فعل النبي صلى الله عليه وسلم في المقام الأول من صور التلقي الأخلاقي في الإسلام، وذلك؛ لما للنبي صلى الله عليه وسلم من مكانة عظيمة في قلوب المسلمين، ولما أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه باتباع نبيه فيما يأمر به وينهى عنه دون قيد.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى في كل خلق كريم، في الصفح والعفو، وفي التواضع والحلم، في الصدق والأمانة، في الصبر والوفاء، في حسن المعاشرة ولين الجانب، في العدل والسخاء... إلى غير ذلك مما لا يبلغ الوصف منتهاه، منهجه في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فكان عليه الصلاة والسلام بتواضعه متميزاً، ويخفّض جناحه متعزّزاً، جم التواضع مع أهله وخدمه، وأصحابه والناس أجمعين.

فأما مع أهله فقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ماذا كان يصنع رسول الله في بيته ؟ فقالت: كما يصنع أحدكم في بيته. يحلب شاته، ويخصف نعله، ويخدم نفسه ويكون في خدمة أهله. [٢]

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول : «ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائماً إلا رأيته، ولا مفطراً إلا رأيته، ولا من الليل قائماً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته، ولا مسست خزة ولا حريرة، ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكة، ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٣)

(١) الشعراء: ٢١٥

(٢) مسند الإمام أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق - رضي الله عنها - طبعة الرسالة، ٤١ /

٣٩٠ برقم ٢٤٩٠٣

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره، ٣ / ٣٩ برقم ١٩٧٣

وعنه -رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً»، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفائي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟» قال قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله (١).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يردف خلفه إذا ركب، ويجيب دعوة العبد والأمة، وكان عليه الصلاة والسلام يجلس مع أصحابه مختلطاً بهم فحيث انتهى به المجلس جلس. ثم هو يقول ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله.)) (٢)

ولقد التزم الرسول الكريم بتطبيق المنهج الإسلامي في الأخلاق أتم تطبيق، حتى شمل به العدو والصديق، ونجد جماع أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- حين سئلت عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن" (٣)

الصورة الثانية- إقراره صلى الله عليه وسلم لبعض السلوك:

وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أخلاقاً فإنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الخلق الحسن من أي شخص كان حتى ولو كان كافراً، وربما مدح صاحب الخلق الحسن، أو كافأه بحسن خلقه.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، ٤/ ١٨٠٥ برقم

٢٣١٠

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} [مريم:

١٦] ٤/ ١٦٥ برقم ٣٤٤٥

(٣) مسند الإمام أحمد، طبعة الرسالة ٤٢/ ١٨٣ برقم ٢٥٣٠٢

ومما مدحه النبي صلى الله عليه وسلم: الحلم والأناة، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم للأشج أشج عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة"^(١)

ومن مواطن الإكرام من أجل مكارم الأخلاق أن النبي صلى الله عليه وسلم أكرم بنت حاتم الطائي عندما وقعت في الأسر ففك أسرها وعفا عنها بلا مقابل وكلف لها من يوصلها إلى أهلها آمنة مطمئنة، وما ذلك إلا مكافأة لأبيها على حسن خلقه^(٢)

وهذه الصورة تبين لنا كيف يكون حال المسلم مع كريم الأخلاق ولو لم يكن مسلماً؛ فإن الإعلاء من الأخلاق الحسنة وتكريم أهلها من صميم دعوة الإسلام، ويكفي في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(٣)

الصورة الثالثة- التعليم والحوار:

في مجال رعاية النشء وتعليمه مكارم الأخلاق نجد النبي صلى الله عليه وسلم معلماً ومحاوراً؛ حتى يصل بمن يحاوره إلى أرقى مراتب حب الفضيلة وبغض الرذيلة، وذلك في حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع الشاب الذي جاء يطلب الترخيص له في الزنا؛ عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أئذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال: "ادنه، فدنا منه قريباً". قال: فجلس قال: "أتحبه لأمك؟" قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم". قال: "أفتحبه لابنتك؟"

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه ١/ ٤٨ برقم ١٧
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م ٢/ ٥٧٩ ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ ٥/ ٣٣٨

(٣) مسند الإمام أحمد، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ١٤/ ٥١٣ برقم ٨٩٥٢

قال: لا. والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: "ولا الناس يحبونه لبنائهم". قال: "أفتحبه لأختك؟" قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم". قال: "أفتحبه لعمتك؟" قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم". قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم". قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحسن فرجه" قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(١).

بهذا الحوار الهادئ المتزن، الذي راعى فورة الشباب، واستخدم النخوة العربية في التنفير من الرذيلة أقر النبي صلى الله عليه وسلم الفضيلة في قلب الشاب الذي كان يتأجج بنار الرذيلة قبل جلوسه مع النبي صلى الله عليه وسلم.

الصورة الرابعة- التأديب والمران:

في بيت النبي صلى الله عليه وسلم نجده مربيًا ومدرّبًا على الآداب والفضائل؛ فهذا ربيبه عمر بن أبي سلمة يقول: كنت غلامًا في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» فما زالت تلك طعمتي بعد.^(٢)

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه»^(٣)

(١) مسند الإمام أحمد، من حديث أبي أمامة الباهلي، ٣٦/ ٥٤٥ برقم ٢٢٢١١

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، ٧/ ٦٨ برقم ٥٣٧٦

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، من حديث رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- ٣/ ٢٠٩ برقم

الصورة الخامسة- الترغيب والترهيب:

في هذه الصورة نجد أقوال النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على الأخلاق ترغيباً وترهيباً، يرغب في حسن الخلق بالدرجات العلا؛ فيقول صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"^(١)

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وإنه كان يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»^(٢)

وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يربط مكارم الأخلاق بالإيمان؛ فيقول مثلاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٣)

وكان صلى الله عليه وسلم يحذر من سوء الخلق وينفر منه، ويهرب أصحابه بنفي الإيمان تارة، وبعدم دخول الجنة أخرى، وهكذا حتى يستقيم حالهم، ومن ذلك:

عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بواقعه»^(٤)

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٥)^(٦)

(١) سنن أبي داود، تحقيق: الأرناؤوط وقره، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ٧/٧٠ برقم /

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٨/ ١٣ برقم ٦٠٣٥

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ٨/ ١١ برقم ٦٠١٨

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لا يأمن جاره بواقعه، ٨/ ١٠ برقم ٦٠١٦

(٥) يعني: قاطع رحم

(٦) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، ٨/ ٥ برقم ٥٩٨٤ عن جبير بن مطعم.

وقال حذيفة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة قتات»^(١)»^(٢)
وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط^(٣) الناس»^(٤)
بهذه الصورة والنصوص فيها أكثر من أن يسعها المقام يبين النبي صلى الله عليه وسلم في سنته أن حسن الخلق فريضة إسلامية، وركيزة اجتماعية، لا تستغني عنها البشرية جميعها.

ثانيًا- بواعث الإلزام الخلقي في الإسلام:

وبتتبع القرآن الكريم ثبت أنه حصر بواعث الأخلاق في ستة بواعث، أخصها فيما يلي:

١- باعث العقل:

إن مزية الإسلام الكبرى على باقي الأديان هي منحة العقل والسلطة في الفهم واستنباط الأحكام، والآيات القرآنية التي تحث على تحكيم العقل وترك اتباع الظن لا تكاد تحصى، ذلك لأن عقل الإنسانية في بدايته وأثناء مراحل الأولى كان عاجزًا أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخير، وأن يحدد مكارم الأخلاق ومساوئها، وكان الوحي السماوي يتولى هذا التجديد بواسطة الرسل.

(١) القتات: الذي يمشي بين الناس بالنميمة

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، ٨ / ١٧٦٠٥٦

(٣) بطر الحق: إنكاره. وغمط الناس: احتقارهم

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، ١ / ٩٣ برقم ٩١

وعندما تكامل العقل الإنساني وبلغ حدًا يستطيع أن يعرف الحق والخير "أنزل الله سبحانه آخر كتبه على آخر رسله، وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الأخيرة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق" (١)

وآيات النظر العقلي، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالأنعام، لا حظ لهم في تركية الأنفس أو تثقيف العقول.

وهكذا أبطل القرآن الحجر على حرية التفكير، حيث كانت التقاليد الدينية قد كبلت بهذا الرق البشرية "وإن أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله، وكون المخاطبين بها، والذين يفهمونها، ويهتدون بها هم العقلاء" (٢).

ولئن كان من " أشرف ثمرات العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته" (٣)، فإن من البديهي أيضًا أن يصبح الإلزام بوازع العقل في المحيط الأخلاقي هو عماد طرق الإلزام وأولها، إذ أوضح القرآن أن الله خلق الإنسان ليعبده وأنه يريد اختياره في هذه الحياة الدنيا، كما بين أنه لا إكراه في الدين، ودل على الأوامر والنواهي، لذلك كان الاقتناع العقلي بصحة القضايا العقلية والمبادئ والأحكام أول أنواع الإلزام (٤)

٢- باعث الضمير:

- (١) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر ص ١٠٢.
- وهو بحث جامع عميق يحتوي على دراسة قضايا حيوية في النفس والأخلاق ويقع في نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبيرة منشور في مجلة مجمع البحوث الإسلامية عدد خاص بعنوان (التوجيه الإسلامي للشباب) ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- (٢) الوحي الحمدي، محمد رشيد رضا، المطبعة السلفية، القاهرة، د. ت. ص ١٨٣.
- (٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي: دار السلام - القاهرة - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ص ٦٦.
- (٤) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر ص ١٠٤

ولكن الإلزام العقلي لا يتم إلا للقلّة من الحكماء الذين يعبدون الله تعالى، ويطيعون أوامره، لأنه سبحانه مستحق بذاته للعبادة وأن أوامره مستحقة الطاعة.

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل، وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس، ولا ينالها العقاب الأرضي بواسطة البشر.

والضمير عبارة عن حالة نفسية من الانشراح أو الانقباض، ويتكون من الحكم العقلي على الأفعال بالنظر إلى حسنها وقبحها، نفعها وضررها "ومن الإيمان بالله، وقدرته، وعدله، ومن الخوف على النفس، والأموال، والأولاد، ومن خوف العقاب من الله ومن الناس" (١)

ويرتبط الضمير بفكرة المسؤولية، وضمير المؤمن موصول بالله — سبحانه — فهو يعيش في حراسة ضميره، ويقظة نفسه اللوامة.

ولما كانت النفس البشرية معترّكة للخير والشر، فإن سلاح مجاهدة المؤمن هو الضمير أو النفس اللوامة، ويسمى هذا الضمير في عرف أهل الشرع المراقبة أو خوف الله أو وازع القلب، ذلك أن في إمكان الإنسان أن يخدع القانون أو يستغله لصالحه أو يحتال عليه، أو يفلت من العقاب الذي ينص عليه؛ لأن القانون من صنع الناس أنفسهم، أما ضمير الإنسان المؤمن فهو بمثابة "محكمة أمن" داخل الإنسان "لا يمكن خداعها ولا الفلات منها ولا تجدي عنها المعاذير، لأنها مرتبطة برقابة عليا، إنها لوامة دائماً، توجه إلى صاحبها إنذارات التأنيب، حتى ترده إلى الخير" (٢)

(١) السابق ص ٩٤

(٢) دروس ونفوس: د. توفيق سيع، ط مجمع البحوث الإسلامية، ج ١ ص ٢١٠، ٢١١.

ومن مكونات الضمير الكبرى الرقابة الإلهية^(١) التي نفهمها من الآيات القرآنية العديدة التي تحذرننا مغبة الانحراف عن الطريق السوي؛ لأن الله سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢)

ومن هذه الآيات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٣)

﴿وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٤)

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُلْهِنُونَ﴾^(٥)

﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٦)

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾^(٧)

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾^(٨)

٣- الترهيب والترغيب:

(١) القرآن في التربية الإسلامية. الشيخ نديم الجسر ص ٨٢.

(٢) غافر: ١٩

(٣) ق: ١٦

(٤) النمل: ٧٥

(٥) النحل: ١٠٩

(٦) إبراهيم: ٣٨

(٧) النساء: ١٠٨

(٨) يونس: ٦١

تنوعت أساليب القرآن من حيث الترهيب والترغيب. ففيما يتصل بالترهيب فإن الله سبحانه يحذر العاصي من انتقامه في النفس والأولاد، أو في الأموال والثمرات هذا في الدنيا. أما في الآخرة، فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار.

وفي جانب الترغيب، وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر، وحفظ النعم على من يحافظون على سلوك طريق الاستقامة، ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم، لتعويض المحرومين من خير الدنيا في الماكل والمشارب والمساكن وغيرها وهو وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين الذين يملأ الزيف قلوبهم، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم، ونقمتها من الحرمان، فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري وفي منتهى الحكمة" (١)

٤ - وازع الكفارات:

ومن أساليب تربية الإسلام للمسلم، وتعويده الالتزام الأخلاقي: تفويض الله - سبحانه - إلى العبد أن يعاقب نفسه جزاءً لما اقترفت يده، وتكفيراً عن بعض الذنوب كالصوم، وهي عقوبة جسدية، أو عتق رقبة أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية.

وهكذا يظهر لون من امتحان الإيمان وتعود الإنسان على محاسبة نفسه، بعد الإقرار بذنبه، والإذعان لحكم ربه وفيها تربية للضمير، واستحضار للرقابة الإلهية، وتعويد على حفظ الإيمان والكف عن بعض المخالفات (٢)

وعن أنواع الكفارات ودورها الاجتماعي أيضًا يرى الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - " أن الإسلام جعلها بمثابة التعاون الاجتماعي، من أفطر في رمضان بغير عذر شرعي فعليه عتق رقبة، أو صيام ستين يومًا، أو إطعام ستين مسكينًا، ومن قال لامرأته: أنت حرام على كأمي

(١) القرآن في التربية الإسلامية، الشيخ نديم الجسر ص ٨٢.

(٢) القرآن في التربية الإسلامية ٩٧.

لا يقرها إلا إذا أعتق رقبة أو صام ستين يوماً أو أطعم ستين مسكيناً، ومن حلف وحنث في يمينه كان عليه عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم" (١)

٥- باحث الرأي العام:

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية، هو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر الطاقة، ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق، التي لا تمتد إليها يد القوانين، والحديث أيضاً يؤكد هذا الأسلوب وهو قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)) (٢)

ويعتمد هذا الأسلوب على استثارة غريزة حب الظهور والرغبة في الثناء والخوف من الذم، وهذا من حكمة القرآن، التي تحول طاقة الغرائز، وتعمل على إعلائها إلى الخير. وهذا هو الأسلوب الذي اكتشفه علماء النفس بعد قرون عديدة (٣)

لقد أخذ القرآن بأساليب التربية التي تعتمد على نظرة الإعلاء للغرائز، مثل: تحول المقاتلة للنهب والسلب إلى الدفاع عن الوطن والمستضعفين والشرف، وغريزة حب الظهور بالكرم والسخاء، والتبذير إلى الإنفاق في سبيل الله، وغريزة حب الظهور ومدح الناس، لتوجيه الإنسان إلى عمل الخير وصرفه عن الشر.

وهذه بعض الآيات التي تشير إلى هذه المعاني في النفس البشرية، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٤)، تشير إلى جموح الغرائز والشهوات.

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي - بدون تاريخ، ص ٢١

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ١/ ٦٩، ح رقم ٤٩

(٣) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر ص ١٠٦.

(٤) يوسف: ٥٣

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(١) إشارة إلى غريزة المقاتلة وتنازع البقاء.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٢) إشارة إلى غريزة حب الاستطلاع، والبحث والانسياق مع هوى النفس.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(٣)

﴿كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾^(٤)

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٥)

وهذه الآيات تشير إلى غريزة حب الظهور والاستعلاء والتفاخر.

وقد ارتقى القرآن بالنفس البشرية إلى أسمى الغايات، حتى يصبح العمل ابتغاء مرضاة الله "بل إنه بلغ من عناية القرآن بإعلاء نفس المسلم فحصر أعظم المدح وأوثق الوعد والرضوان والنجاة من نار جهنم بالأتقى الذي ينفق إكراماً لوجه ربه الأعلى"^(٦)

٦- باعث السلطان:

بعض الناس لا تصلح معهم البواعث السابقة، فلا يكفي باعث العقل وحده عند جميع الناس، كما لا يكفي باعث الضمير عند الغارقين في الجرائم والآثام، والترهيب لا يحقق هدفه مع المفضلين للعاجلة، أو المعتمدين على رحمة الله عز وجل بلا تفكير في أن الرحمة لا تناقض

(١) البقرة: ٣٦

(٢) الكهف: ٥٤

(٣) النساء: ٣٦

(٤) العلق: ٦، ٧

(٥) آل عمران: ١٨٨

(٦) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر ص ٤٨، ٥٠، ٦٢، ١٠٦.

العدل والحكمة البالغة، وباعث الرأي العام لا يؤثي ثماره مع الذين جف في وجوههم ماء الحياء من الله والناس، لا سيما عندما يعم البلاء، كما يضرب الله المثل بما حدث للذين كفروا من بني إسرائيل حيث ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١) لذلك كان لابد من باعث أعظم، وهو وازع السلطان، حيث قيل: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"^(٢) وهى العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم، وفوض أمرها إلى الحكام^(٣)

وأخيراً فإننا نرى أن باعث القرآن أكثر أثراً من غيره -وخاصة السلطان- في الإنسان، إذ إن السلطان ربما لا يصل إلى بعض الجرائم التي تخفى عليه، أو أن مجرماً (يقلت من يد العدالة من ضعف الحكومة أو فقدان الأدلة أو فساد القضاء)^(٤)

وعليه فإن اجتماع البواعث كلها مهم جداً عند أكثر الناس؛ لأن إحاطتها بالإنسان تردعه وترجره وتنهيه؛ فإن لم تكن كلها مجتمعة فيه فليكن جلها، حتى يبقى للإنسان ما يقيه من الرذائل ويبقى عليه شيئاً من الفضائل.

(١) المائدة: ٧٩

(٢) رواه ابن شبة في تاريخه عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه-.

(٣) عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: ٢٦٢هـ) تاريخ المدينة لابن شبة، حققه: فهمي محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة - ١٣٩٩ هـ، ٣/ ٩٨٨

(٤) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر ص ١٠٦.

(٤) نفسه ص ١٠٦.

المبحث الثالث

الضمير والعقل بين الإسلام والمذاهب الفلسفية

في هذا المبحث نعود إلى كل من الضمير والعقل بين المتكلمين وفلاسفة الإسلام؛ لما لهما من دور خطير أقر به كل من الطرفين، غير أن الفلاسفة رفعوا قدرهما فوق ما يراه المتكلمون؛ فوجب بيان مكانة الضمير والعقل بحسب نصوص الإسلام - قرآنا وسنة-؛ إذ هذه النصوص هي الفيصل وهي الميزان الصحيح.

الضمير كمصدر للإلزام عند فلاسفة الإسلام :تعريفه :

عُرِفَ الضمير بأنه: قوة تميز الخير من الشر وتأمّر بالأول وتثيب عليه بالارتياح والطمأنينة وتنهى عن الثاني وتعاقب عليه بالتأنيب والندم.^(١)

والضمير ككلمة قد كثر استعمالها أخيراً، وشاعت أكثر ما شاعت في الأوساط الغربية، كمظهر من مظاهر الروح العامة للنهضة الأوروبية التي اتجهت بفكرها وسلوكها بعيداً عن الدين، حيث جعلوا الإحساس الداخلي بديلاً عنه، فهو يتولى التمييز بين الخير والشر، ويدعو إلى الأول وينهى عن الثاني، وشاع استعمال هذا اللفظ أيضاً في الشرق تقليداً للغرب.

وهو وإن لم يرد كثيراً في الاستعمال القديم بهذا المعنى فقد تحدّث فلاسفة الأخلاق كالغزالي وابن مسكويه عن مهمته بعنوان آخر، ففي (إحياء علوم الدين) عند شرح الغزالي عجائب القلب قال: إنها نفس الإنسان التي تُوصف بالمطمئنة إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات، والتي تُوصف باللّوامة إذا لم يتم سكونها واعتضت على النفس الشهوانية، كما تُوصف بالأثمارة بالسوء إن تركت الاعتراض وأطاعت الشهوات^(٢)

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٨م،

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ٣ / ٤

كما تحدث عنها في كتاب المراقبة والمحاسبة ضمن كتاب "الإحياء" وعبر عنها مرة بالنور الإلهي وأخرى بالمعرفة، والهادية للمرء في أعماله^(١)

إن هناك حديثاً يدل على وجود هذه القوة الباطنة وهو حديث وابصة بن معبد الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال له: "يا وابصة، استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك"^(٢).

وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: " البر حُسْنُ الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"^(٣)

والغزالي يرى أن نشاط الضمير يظهر في ثلاثة مواطن، الأول قبل الشروع في العمل، بالنظر إلى الباعث عليه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره انكف عنه، والثاني عند الشروع في العمل، بقضاء حق الله فيه، وإنجازه على أكمل ما يمكن، والثالث بعد العمل، وذلك بمحاسبة النفس على ما وقع منها^(٤)

ومهما يكن من شيء فإن الضمير بالمعنى الذي يريده فلاسفة الغرب تحدث عنه علماء الإسلام، لكنهم تناولوا بالحديث آثاره وخواصه، أما ماهيته فقد أحجم الغزالي عن تحديدها؛ لأنه ليست هناك فائدة عملية من معرفة كُنْهها، وذلك من اختصاص الله سبحانه، أما ابن مسكويه: فقد بنى نظريته الأخلاقية من خلال حديثه عن النفس الإنسانية، فالنفس عند ابن مسكويه جوهر مغاير لجوهر الجسم؛ لأنها لا تتغير ولا تستحيل بتغيره واستحالتها، وكل يتشوق إلى ما يناسبه، فكما أن الجسم يتشوق إلى أفعال لا تشتهاها النفس، فكذلك النفس تشتهي

(١) ينظر: الإحياء للغزالي ٤ / ٣٠٧

(٢) رواه أحمد في المسند، مسند الشاميين، من حديث وابصة، (٢٩ / ٥٢٧ - ٥٢٨) ح رقم (١٨٠٠١)

(٣) رواه مسلم (٤ / ١٩٨٠) كتاب فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - باب البر والإثم، ح رقم (٢٥٥٣)

(٤) إحياء علوم الدين ١ / ٨٥

إلى ما يناسبها كالحرص على معرفة الأمور الإلهية وإيثارها وانصرافها عن الشهوات واللذات الجسمية، وهو ينتجى قول سقراط بأن الفضيلة هى المعرفة وأن الإثم الأخلاقى إنما هو جهل وسوء تقدير. وقد تكلم عن الضمير وأهميته بالنسبة للإلزام الخلقى حال حديثه عن النفس وقواها الثلاث فى كتابه تهذيب الأخلاق حيث ذكر أن منها القوة الباطنة أو العاقلة ووصفها بأنها قبس من النور قذف به الخالق إلى النفس البشرية ليكون لها هاديا ومرشدا وصرح بأن أصل هذه القوة هو الميل للخير والنفور من الشر - ويرى - أن الإنسان إذا رجع لنفسه عند إتيان عمل من الأعمال وجد أن فى قرارها قوة تأمره بالخير وتشجعه عليه وتحذره من الشر وتثبطه عنه وأنه إذا عمل بوحيتها أحس ارتياحا وطمئينة وغبطة لأنه عرف لنفسه كرامتها ، وإن عصاها أحس بألم ينال منه أشد منا لو بندم يدعوه للتوبة والإنابة^(١)

وبعد بيان مكانة الضمير لدى فلاسفة الإسلام، وكان الحديث قد سبق فى بيان مكانة العقل لديهم أيضا، بقي التعرّيج على نظرة الإسلام لكل من الضمير والعقل باعتبارهما مصدرين من مصادر الإلزام الخلقى.

الدور الذى يقوم به الضمير فى مجال الأخلاق:

إن المتتبع لما تقدم من حديث حول ماهية الضمير يجد أنه يعول عليه كمصدر من مصادر الأخلاق وله وظائف يقوم بها فى المجال الأخلاقى، وتتمثل فى:

(١) الاكتشاف والتمييز: وفيه يفرق الضمير بين طريق الغى وطريق الرشاد ، فإن أبرز نتيجة اكتشافه انتقل إلى الدور الثانى .

(٢) الناصح الأمين: وهذا هو الدور الثانى للضمير، فإذا أتم مهمته ودفع العمل الإنسانى الصحيح بالفعل انتقل إلى دور القاضى العادل .

(١) انظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: ٤٢١هـ) حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى، (ص ٣٠)

(٣) القاضي العادل : وفي هذا الدور يقوم الضمير بالحكم على الفعل الإنساني فإن كان مطيعاً فهو مستحق للثواب، وإن كان عاصياً فهو مستوجب للعقاب.

(٤) السلطة التنفيذية : وفي هذا الدور ينفذ الضمير ما أصدره من أحكام في المرحلة السابقة، فيسبغ على من أطاعه حلل السعادة النفسية والراحة والطمأنينة، ويذيق من عصي أوامره وتوجيهاته سوط العذاب من التعاسة والندم^(١)

إذاً ففلسفة الضمير في مجال الأخلاق عامة، والمهنة خاصة، تظهر في نواح ثلاثة:

- قبل قيام الإنسان بالعمل

- في أثناء قيامه به

- بعد إتمام العمل

لكن الضمير لن يستطيع القيام بسلطاته ووظائفه في مجال الأخلاق المهنية وغيرها إلا إذا استند على معيار ثابت عنه تصدر أحكامه، ومنه يستلهم أوامره. ولن يوجد ذلك إلا في الدين وتعاليمه. أما الضمير المطلق فإنه في كثير من الأحيان عرضة للزيغ والضلال في أحكامه وتوجيهاته.

عوامل انحراف الضمير :

إن الضمير المطلق الذي نادى به كثير من فلاسفة الغرب كمصدر ومعيار للأخلاق تسهم عوامل كثيرة في انحرافه عن جادة الحق والصواب، من هذه العوامل:

(البيئة): فكثيراً ما تنشأ في البيئة عادات خاطئة يشب على حبها الولدان، ومن ثم تشكل ضمائرهم فلا ينزعجون إذا ما اقترفوها بل كثيراً ما يجدون الراحة في ارتكاب تلك الآثام والشور التي نشأوا عليها، ولا أدل على ذلك من عادة "الثأر" لدى بعض العائلات في صعيد مصر العواطف والانفعالات فلمشاعر غير الواعية كثيراً ما تعمي الضمير عن الحق والعدل .

(١) انظر: مباحث ونظريات في علم الأخلاق، أبو بكر ذكرى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٠٨

(العادات السيئة) فالمرء إذا ما اعتاد فعل شيء قبيح فإن ضميره يتعود على ذلك الأمر، وكأنه أنس إليه أو رضى به؛ لأن الضمير من كثرة ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتى عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة لما اعتاد عليه.

(المصلحة الشخصية) فكثيراً ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية، أو المصلحة الشخصية، وإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة^(١).

مدى صلاحية الضمير كمصدر ومعيار في المجال الأخلاقى :

إن الضمير المطلق الذى وجد فيه بعض الأخلاقيين ضالتهم فاعتمدوه مصدرًا أو معيارًا للأخلاق، يمكن أن نقرر أنه لا يصلح أن يكون مصدرًا للأخلاق، وذلك لما يأتى :

١- أن تصور الضمير على أنه غريزة فطرية أو شيء مكتسب من البيئة كما سبق وتقدم يؤدي إلى نسبية الأخلاق ونسبية الخير والشر في مجال العمل المهني، وقد تقدم تفصيل ذلك وبيان.

٢- أن الإنسان لا يمكنه أن يكتفى بضميره في وضع القوانين الاجتماعية أو المهنية، والدليل على ذلك حالات الانهيار الاجتماعي والأخلاقى التي تسود المجتمعات في فترات الإلحاد التي مرت بها قديمًا وحديثًا.

٣- أن ما ذكرناه سابقًا من عوامل تؤدي إلى انحراف الضمير تجعلنا لا نركن إليه ولا نعول عليه كمصدر للأخلاق المهنية، أو مقياس لها، ذلك أن كثيرًا من الأفعال تحتاج إلى تحليل واستدلال لمعرفة ما إذا كانت خيرًا أو شرًا، ومن ثم لا يكفي الضمير وحده لمعرفة.

٤- أن الضمير المطلق نسبي متغير، ومن ثم لا يمكن تأسيس الأخلاق على النسبي المتغير؛ لأنها ينبغي أن تكون عامة وكلية ومطلقة.^(٢)

(١) في الأخلاق الإنسانية، ص ١٨ بتصرف.

(٢) الأخلاق في الإسلام، د. كايد قرعوش وزملاؤه، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط ٥، ١٤٢٨هـ. ص ٩٥

ولعل الدليل على نسبية الضمير وتغيره وجود ذوى الضمائر المريضة الذين يقتربون الآثام والشرور زاعمين راحة الضمير، وقد أشار القرآن الكريم إليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١) يقول أندريه كريسون: "الناس في كل العصور وفي كل الأقطار يستشيرون ضمائرهم، ولكنها لا تسمعهم جميعاً لحناً واحداً؛ لأن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس الإصلاحية والمخلصة في عصر خاص لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى.^(٢)

٥- كذلك نجد في تعريف الضمير أوصافاً تقتزن به تبعاً للأحوال المختلفة " من وضوح وغموض وريبة وخطأ"^(٣) مما يجعلنا نتريث في الركون إليه كمصدر ومعيار للأخلاق. فمن كان صفته وحاله هكذا كيف يكون معياراً لتبين الخير والشر !

٦- إن أحكام الضمير تكون مبهمة لا وضوح فيها فكيف نعتمدها منبعاً ومعياراً للأخلاق المهنية أو غيرها؟

٧- وفي النهاية نجد أن كلمة "ضمير" من حيث هذا المفهوم الأخلاقي المطلق لا وجود لها في معاجم اللغة العربية كما أنها من حيث فكرة مرجعيتها كمصدر للأخلاق، وضابط لها، ظهرت وانتشرت في عصر النهضة الأوروبية عندما قضى زعماء الثورة على الكنيسة فأشاعوا هذه الفكرة؛ لتكون بديلاً عن الدين في مجال الأخلاق فكانت النتائج على ما نراه اليوم.^(٤)

(١) الكهف: ١٠٤

(٢) المشكلة الخلقية، د/ زكريا ابراهيم ط- مكتبة مصر، ص ١٥

(٣) الأخلاق في الإسلام، النظرية والتطبيق، د/ إيمان عبد المؤمن، مكتبة الرشد، ط ٣، ١٤٢٧هـ. ص ١٠٣

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حنكة، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٧٩م. ١٣ / ٢

مناقشة المقياس العقلي في المجال الأخلاقي :

من خلال ما تقدم من حديث عن العقل ودوره في المجال الأخلاقي، يمكن أن نورد عددًا من الملاحظات التي من خلالها يكون عمل العقل - مطلقًا بلا قيد- دربًا من العبث، من ذلك:

١- أن المقياس الخلقى يشترط فيه أن يكون عامًّا لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والعقل ليس كذلك بل هو في تفكيره وإدراكه للأشياء وإبداء الحكم عليها يختلف باختلاف الزمان والمكان، بل ويختلف في حق الشخص الواحد من مرحلة عمرية إلى أخرى تبعًا لما يحيط به من ظروف وأحوال .

٢- أن العقل في أحيان متعددة يقوم في أحكامه وتصوراته، على أسس خاطئة مخالفة للدين والتربية وتهذيب الأخلاق.

٣- أن العقل محدد وقاصر، لا علم له إلا بظواهر الأشياء وهو عاجز تمامًا عن استكناه النفس الإنسانية ووضع القانون الذي يلائم طبيعتها؛ لأن هذا من اختصاص من خلق النفس ويعلم كنهها وما يصلحها، وما يناسبها من تشريعات.

٤- إذا ما استطاع عقل بشري أن يضع تشريعًا، فإنه سوف يكون قاصرًا ومحدودًا؛ لأنه لن يستطيع أن يقيم العدل بين الناس جميعًا، بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم. إذ الناس مختلفون أشد الاختلاف في العقول والاستعدادات والبيئات، وكل ذلك يقف عقبة أمام العقل البشري المحدود في وضع التشريع الذي يحقق العدل بين الناس كافة.

٥- أن العقل في أغلب أحواله يقنن للأشياء ويصدر حكمه عليها تبعًا للمصلحة، وأمر كهذا من شأنه أن يقودنا إلى نسبية الخير والشر والفضيلة، والرذيلة وما يقتزن بهما من أسس وأحكام، لاسيما إذا ما تضاربت المصالح وتعارضت المنافع، وكثيرًا ما يقع ذلك. ومن ثم يرى

"اسبينوزا" أن "الخير والشر أمران نسبيا ولهذا فإن الشيء الواحد يرى خيرا أو شرا وفقاً للأوجه التي ننظر منها إلى الشيء" ^(١) وهذه دعوة للسوفسطائية ومذهبها في مجال الأخلاق.

٦- كذلك نجد حالات الانحياز الاجتماعي والأخلاقي التي تسود المجتمعات في فترات الإلحاد قديماً وحديثاً خير شاهد على عدم كفاية العقل للتقنيات الأخلاقية، ووضع أطر الفضيلة ومعايير الخير والشر بين الناس.

٧- أيضاً نجد أحكام العقل المطلق لا يأخذ صاحبها إلا برأيه الذي كونه لنفسه، غير مقيد بعرف أو قانون أو مبدأ نظري عام. ^(٢)

٨- أن العلوم العقلية تصيب وتخطيء، والقانون الأخلاقي الذي ننشده لا بد له من مصدر معصوم ^(٣)

٩- كذلك نجد عوامل كثيرة تحول بين العقل وبين التفكير المستقيم، والوصول إلى الحكم الصحيح على الأشياء منها:

أ- اتباع الهوى: وقد حذر الإسلام منه، في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(٤)

ب- التقليد: ومن خلاله يسلم الإنسان زمام عقله لغيره، ومن ثم حكى القرآن الكريم عن قوم ضلوا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ^(٥) وهذا هو التقليد.

(١) اسبينوزا، د. فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٣، ص ١٩٦

(٢) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، ص ١٥٢

(٣) الرسالة اللدنية من مجموعة القصور العوالي، أبو حامد الغزالي، ت: محمد أبو العلا، ص ١١٠ بتصرف

(٤) ص: ٢٦

(٥) الزخرف: ٢٣

ج- الافتتان بمشاهير المجتمع: وقد حذر الله سبحانه وتعالى منه في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يعبد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم؟ فقال: " أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ". وما اتباعهم لهم إلا اقتنائاً بهؤلاء المشاهير من أصحاب السلطة الدينية. د- الإرهاب الفكري: فمتى شعر العقل بالمؤاخذة على تفكير يديه، أحجم واحتفظ به داخله، وربما تعطل عن التفكير نتيجة الإرهاب المتسلط عليه، وربما حصر تفكيره فيما يرضي به المستبد، وهذا ما دعا فرعون إلى أن يعلن في تسلط وتجبر قائلاً: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾^(٢) لأجل ما تقدم وغيره يمكن أن نقرر أن العقل الإنساني لا يمكن أن نركن إليه في تكوين قانون أخلاقي يكون مصدراً للتشريع والتقنين .

(١) التوبة: ٣١

(٢) غافر: ٢٩

الخلاصة:

تبين من خلال البحث عدة نتائج -أراها- قيمة، ينبغي تدوينها في نهاية البحث؛ تنويعاً له، واختصاراً لما جاء فيه من مواد بحثية، لعلها تعين القارئ على تمثيل ما جاء في البحث بصورة سهلة بعيدة عن المناقشات والمساجلات بين الفلاسفة والمسلمين، وكان من هذه النتائج:

- الفلسفات نتاج بشري، ممتد بامتداد الأجيال، تتعاقب الأجيال وتتعاقد معها الفهم على السابقين، وتأني الفلسفات بما يفرضه الواقع من عوامل، فأزمة الحروب تختلف فلسفاتهما عن أزمنة السلم، وعموم العلم في مجتمع يؤثر في فلسفته بخلاف مجتمع يعمه الجهل والظلام، وخير مثال على ذلك: المقارنة بين فلسفات العصور الوسطى في أوروبا وفلسفات عصر النهضة -كما يسمونه-.
- الفلسفات لا تأتي بحلول جذرية لمشكلة من المشكلات؛ ذلك أنها نتاج عقول بشرية، والعقل البشري قاصرٌ زماناً ومكاناً، بل إنه لا يبحث عن حل للمشكلة إلا بعد وقوعها وظهور كثير من آثارها.
- الفلسفات متعارضة متناقضة، يهدم بعضها بناء بعض، لا يستطيع إنسان مهما أوتي من العلم والحدق الفلسفي أن يجمع بين الفلسفات جميعاً في إطار واحد، أو في نسق متجانس، وهذا الأمر وإن كان عيباً في البناء الفلسفي، ولكنه ميزة لانطلاق العقل البشري الباحث عن الحقيقة.
- تلتقي المثالية والواقعية في جودة العمل الأخلاقي، وتختلف في الغاية من هذه الجودة؛ فالمثالية تريد الرقي بالروح إلى المثل العليا، بينما تريد الواقعية مطابقة الواقع حرفياً.

- ربما تلتقي الفلسفة مع الدين في طلب الفضيلة، وعموم الحق والخير، ونشر الجمال في كل قول وعمل، ولكنها تختلف مع الدين في المصدر والغاية؛ فمصدر الفلسفة وغايتها أرضية، تبدأ على الأرض من العقل البشري، وتنتهي بغاية أرضية وهي السعادة الاجتماعية أو الفردية في المجتمع الإنساني، أما الدين فمصدره رباني، وغايته السعادة الأبدية في جنة الرضوان بعد الموت.
- تختلف الفلسفات فيما بينها حول نسبية الأخلاق وإطلاقها، بينما نجدتها في الإسلام مطلقة ثابتة لا تتغير.
- إطلاق الأخلاق وثباتها في الإسلام ليس بالمفهوم الفلسفي المثالي، وإنما بالمفهوم الشرعي، أي أن الأخلاق ثابتة بنص الشرع مطلقة بأمر الشرع، بمعنى أن الإطلاق والثبات ليس بما يراه البشر أو في حدود ما يراه البشر، وإنما بما جاء في الشرع.
- العقل والضمير في الفلسفات عبارة عن إلهين يشرعان أحياناً، أو آلتين تخدمان شهوات الإنسان وغرائزه أحياناً أخرى.
- العقل والضمير في الإسلام أدوات نص الشرع على استخدامها بحدود طاقة كل منهما، ولا دخل لأحدهما في تشريع خلق من الأخلاق، ولا في توجيهه، ولكن في فهمه وكيفية تحصيله، والعلم بمواضع استحقاقه.
- امتاز الإسلام عن الفلسفات بالجزاء الأخروي على الأخلاق، وربطها بالدين، سواء من الجانب العقدي، أم من الجانب التعبدي، أم الجانب التشريعي في المعاملات.
- امتاز الإسلام عن الفلسفات أيضاً بأن جعل الأخلاق واقعاً حياً وأصلاً متجذراً، وليست نماذج فلسفية هلامية، سواء مثالية لا يمكن تحقيقها، أم واقعية ليس لها جذر تنتمي إليه، وإنما هي تقليد لما يجري في الواقع.

- امتاز الإسلام في أخلاقه بالعموم والشمول؛ فلم يجعلها طائفية ولا حزبية، وإنما حسن الخلق للجميع، حتى مع الأعداء.

التوصيات:

ما زالت الأخلاق بحاجة إلى مزيد بحث وعناية، خصوصاً في دعاوى التجديد، والرد على العلمانيين، وكذلك دعم البحوث الرابطة بين العقيدة والأخلاق فهي الأساس في هذا المجال البحثي.

والله الموفق والمستعان

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: السنة النبوية

صحيح البخاري

صحيح مسلم

سنن أبي داود

سنن الترمذي

مسند الإمام أحمد

المستدرک علی الصحيحین

ثالثاً: الكتب المؤلفات:

- (١) إحياء علوم الدين للغزالي، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت
- (٢) الأخلاق في الإسلام، د. كايد قرعوش وزملاؤه، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط ٥، ١٤٢٨هـ.
- (٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٧٩م.
- (٤) الأخلاق في الإسلام، النظرية والتطبيق، د/ إيمان عبد المؤمن، مكتبة الرشد، ط ٣، ١٤٢٧هـ.
- (٥) الإسلام عقيدة وشرعية، للإمام محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الثامنة عشر، ٢٠٠١م
- (٦) الإسلام والمذاهب الاشتراكية، أبو شكيب محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط الثالثة ١٩٧٠م ١٣٩٠هـ
- (٧) أصول التربية، أحمد عبده الحاج محمد، دار المناهج، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م
- (٨) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة: التاسعة ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م
- (٩) الأصول الفلسفية للتربية، شبل بدران وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م
- (١٠) تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، مكتبة الدراسات الفلسفية الطبعة : الخامسة
- (١١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار المعارف، مصر، ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨م
- (١٢) التربية الأخلاقية، أبادير حكيم، مطبعة اليقظة بالفجالة، مصر، ١٩٢٢م
- (١٣) تطور الفكر التربوي عبر القرون. عماد عطية، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠١٠م
- (١٤) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- (١٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- ١٦) تنظيم الإسلام للمجتمع، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي - بدون تاريخ
- ١٧) تهذيب الأخلاق للجاحظ، دار الصحابة للتراث، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م
- ١٨) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: ٤٢١هـ) حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى
- ١٩) الجمع بين رأيي الحكيمين للفارابي، تقديم وتحقيق ألبر نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، د. خلق المسلم الشيخ: محمد الغزالي، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
- ٢٠) دروس ونفوس: د. توفيق سبع ، ط مجمع البحوث الإسلامية
- ٢١) دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الصبور شاهين، طبعة الرسالة، ط عاشر، ١٩٧٣م
- ٢٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥هـ
- ٢٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي: دار السلام - القاهرة - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
- ٢٤) الرسالة اللدنية من مجموعة القصور العوالي، أبو حامد الغزالي، ت: محمد أبو العلا
- ٢٥) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م
- ٢٦) علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن محمد علي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر - الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
- ٢٧) العلمانية - المفهوم والمظاهر والأسباب-، أبو سفيان مصطفى باخو السلاوي المغربي، جريدة السبيل، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
- ٢٨) فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادع العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
- ٢٩) الفكر التربوي مدارسه واتجاهات تطوره، محمد زيادة وآخرون، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٧هـ.
- ٣٠) فلسفات التربية، إبراهيم ناصر، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٤م
- ٣١) فلسفة التربية، هاتب عبد الرحمن صالح، عمان، د. ن.، ١٩٧٦م
- ٣٢) فلسفة التربية ، ماهر إسماعيل الجعفري وآخرون، دار الكتب للطباعة والنشر - بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٩٣م.
- ٣٣) الفلسفة وتطبيقاتها التربوية، نعيم جعيني، دار وائل، الأردن، ٢٠٠٤م

- (٣٤) القاموس السياسي، أحمد عطية الله، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م
- (٣٥) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ نديم الجسر، مجلة مجمع البحوث الإسلامية عدد خاص بعنوان (التوجيه الإسلامي للشباب) ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- (٣٦) قصة الحصار، ول ديورانت = ويليام جيمس ديورانت (المتوفى: ١٩٨١ م) تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- (٣٧) قصة الفلسفة اليونانية، زكي نجيب محمود وأحمد أمين،
- (٣٨) القيم الأخلاقية دراسة نقدية في الفكر الإسلامي والمعاصر، سامية عبد الرحمن، د. ن.، ١٩٩٢
- (٣٩) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، المؤلف: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ) تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دروح، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٩٩٦م.
- (٤٠) مباحث في فلسفة الأخلاق، محمد يوسف موسى، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٨م
- (٤١) مباحث ونظريات في علم الأخلاق، أبو بكر ذكرى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م
- (٤٢) مبحث القيم في علوم الإنسان، محمد أحمد بيومي، دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية، ١٩٨١م.
- (٤٣) محاورات أفلاطون، أفلاطون، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة
- (٤٤) مدخل إلى أصول التربية العامة، محمد عبد الرحمن الدخيل، ونبيب أحمد عبد الهادي، دار الخرجي. الرياض، ١٤٢٤هـ.
- (٤٥) مصطلح فلسفة التربية في ضوء المنهج الإسلامي (دراسة نقدية) خالد بن حامد الحازمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السادسة والثلاثون، العدد الرابع والعشرون بعد المائة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م
- (٤٦) المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية) الدكتور جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب - بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م
- (٤٧) معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ) دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
- (٤٨) مقدمة في فلسفة التربية، جورج نيلر، ترجمة: نظمي لوقا، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٧٧م
- (٤٩) الملل والنحل للشهرستاني، مؤسسة الحلبي/ مصر، د. ت.
- (٥٠) موجز تاريخ الفلسفة، تأليف: جماعة من الأساتذة السوفيات، ترجمة وتقديم: د. توفيق سلوم، الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٥١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة،

١٤٢٠ هـ

٥٢) النظريات التربوية في ضوء الإسلام، مقداد يالجن، دار عالم الكتب، السعودية، ٢٠٠٨ م
 ٥٣) النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها - دراسة نقدية، حسن بن محمد حسن الأسمرى. أصل الكتاب: رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه، من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، طبع على نفقة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

٥٤) نظرية القيم في الفكر المعاصر، لصالح قنصوه، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٨٤ م.

٥٥) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، المطبعة السلفية، القاهرة، د. ت.

فهرس الموضوعات

١٣٥	ملخص البحث
١٣٩	المقدمة
١٤٠	الفصل الأول : دور الفلسفات في العمل الأخلاقي.
١٤٥	المبحث الأول: العمل الأخلاقي في الفلسفة المثالية.....
١٥٦	المبحث الثاني: العمل الأخلاقي في الفلسفة الواقعية.....
١٦٧	الفصل الثاني: العمل الأخلاقي في الإسلام.
١٦٨	المبحث الأول: الأخلاق، وأهميتها، وخصائصها في الإسلام.
١٨٢	المبحث الثاني: مصادر الأخلاق في الإسلام.
٢٠١	المبحث الثالث: الضمير والعقل بين الإسلام والمذاهب الفلسفية.....
٢١٠	الخاتمة :
٢١٣	قائمة المصادر والمراجع